سلسلة القصص العالمية

أحدب نوتردام

تأليف

فيكتور هوغو

ترجمه بتصرف

موريس شربل



دار الفكر العربي

بيروت - لبنان

الطبـعـة الأولى ٢٠٠٥



دار الفكر العربي

مؤسسة ثقافية للطباعة والنشر والتوزيع

كورنيش سليم سلام ـ بناية الشروق ـ الطابق الأول

هاتف: ٠١/٣١١١١٤ ـ ٠١/٣١١١١٥ ـ فاكس: ٠١/٣١٣٧٣٦

ص.ب: ١٤/٥٠٧٠ ـ بيروت ـ لبنان

Email: fikrarab@cyberia.net.lb

مقدمـــة

أحدب نوتردام من أولى القصص التي كتبها فيكتور هوغو (نشرت عام ١٨٣١). وقد مارس المؤلف تأليف أنواع أدبية أخرى كالرواية والمسرح والشعر، وغيرها...

فيكتور هوغو في «أحدب نوتردام» رسخ جذور الرومنطيقية مع نقده اللاذع إن للعدالة على الأرض أو للقضاء والقضاة في تلك الأيام وإن لرجال الدين وسلطتهم الخفية في الدولة. مع حفاظه على إظهار الحب الحقيقي وبراءة الحب وما ينتج عنه من هواجس وعواصف وصولاً أحياناً إلى اقتراف الجرائم كل ذلك تسببه الأنانية المترسخة في النفس البشرية...

تم إيجاز القصة الحقيقية إلى ما يزيد على مئتي صفحة، وقد ترجمت انما بتصرف. لكن موضوعها وتسلسل أحداثها بقينا أمناء عليهما فقسمت القصة إلى ٣٣ فصلاً. مع صفحة موجزة عن حياة الكاتب العظيم فيكتور هوغو لإعطاء فكرة عنه.

وعند النهاية نجد مجموعة أسئلة أدبية وتربوية تساهم في فهم القصة ومراجعة أحداثها وجعل التلميذ أو القارىء متيقظاً إلى كل حديث، أو مراجعته إذا سها عن أمرٍ ما في القصة... كما أنها تفيد كتحضير للبحث الأدبي وتحليل النص وما شاكل...

تسعى دار الفكر العربي من نشر سلسلة القصص العالمية بشكل مبسط ومختصر من باب العمل على انفتاح المجتمع العربي على الثقافات الأجنبية وبصورة خاصة القصص العالمية التي تعتبر من روائع الفكر العالمي.

أشير أخيراً أنني كمترجم قد حافظت ما أمكنني على سياق القصة الأصلي، فلم أتصرف إلا قليلاً ولم ألغي إلا الوصف الطويل أو المرافعة الطويلة في المحكمة أو ما إلى ذلك...

آمل أخيراً أن يحقق هذا الكتاب بغيتي لدى القارىء العربي ويدخل إلى نفسه السلوى والارتياح ويوفر له ما يرجوه من الفائدة والمتعة.. والله ولي التوفيق.

موريس شربل

فيكتور هوغو Victor Hugo
(١٨٠٢ ـ ١٨٨٥م)

شاعر وروائي فرنسي، ولد في بيزنسون. ورافق في صباه والده الجنرال في جيش نابليون إلى نابولي وإلى مدريد.. فأثرت هذه الرحلات على تفكير الفتى فيكتور. من ناحية أخرى، لم تكن دراسته تامة أو منتظمة فقد أمضى ثلاث سنوات في إحدى مدارس باريس. كان ذكياً في الرياضيات، وشديد الشغف بالمطالعة، ظهر أول ديوان شعري له وهو في العشرين من عمره. فلفت الانتباه إليه وبنوع خاص في البلاط الملكي الذي خصّه بمنحة كان في أمسّ الحاجة إليها.

تزوج رفيقة صباه أدال فوشيه التي كان يحبها شقيقه. ومن أخباره مع العظماء، كان بسمارك مشغولاً بضم الولايات الألمانية بعضها إلى بعض، عندما ظهرت نوايا نابليون الثالث في إعداد العدة لغزو ألمانيا.

فما كان من بسمارك إلا أن بعث برسالة إلى فيكتور هوغو تبدأ بهذه العبارة: «... من عظيم ألمانيا إلى عظيم فرنسا...» طالباً فيها من الشاعر الكبير أن يوجه الشعب الفرنسي ضد نابليون الثالث وضد فكرة الحرب التي كان يكرهها هوغو كثيراً، فما كان من نابليون الثالث إلا اعتقال هوغو فهاج الشعب الفرنسي وهدد الامبراطور إذا لم يفرج عنه، فلبى طلب الشعب وعفا عن هوغو.

من أهم أعماله: نشر هوغو الموشحات الغنائية عام ١٨٨٢، وديوان المشرقيات

(١٨٢٨)، كروموبل (١٨٢٧)، أرناني (١٨٣٠) وبذلك أصبح زعيم الرومنطيقية، ثم نشر رواية أحدب نوتردام (١٨٣١)، وأربعة دواوين شعرية في «أوراق الخريف» (١٨٣١)، أناشيد الغسق (١٨٣٥) والأشعة والظلال (١٨٣٧)، والأصوات الداخلية (١٨٤٠)، مسرحية ماريون دولورم (١٨٣١) مسرحية لوكريس يورجيا (١٨٣٣) وري بلاس (١٨٣٨)، بوغراف (١٨٤٣). انتخب نائب عام ١٨٤٨ وغادر باريس بعد انقلاب (١٨٥١) فنشر «العقاب» (١٨٥٣)، التأملات (١٨٥٦)، اسطورة القرون (١٨٥٩ ـ ١٨٨٣)، البؤساء (١٨٦٢)، عمّال البحر (١٨٦٦). وبعد وفاته نقلت رفاته إلى البانتيون مثوى عظماء فرنسا.



عيد المغفلين

قرعت أجراس كنائس باريس دفعة واحدة فامتلأت الأجواء برنينها وصدى الرنين فتهافت الناس إلى الشوارع زرافات ووحداناً.

المهم أن تعلم أن ذلك اليوم ليس من الأيام الخالدة أو المجيدة في تاريخ فرنسا. ولم يكن أيضاً من الأيام التي تقرّر فيها عودة الملك إلى عاصمة ملكه.

وكذلك لم يكن يوماً معلناً لشنق أحد المجرمين في ميدان «لاجريف»، أو موعد لقدوم سفير جديد من سفراء الدول الكبرى أو الصديقة...

أخيراً لم يكن يوم احتفال بنصر حربي أم سياسي...

فماذا عساه يكون سبب تهافت الناس إلى الشوارع في هذا اليوم؟

نعم الكل يعلم أن هذا اليوم هو يوم الاحتفال بعيد المغفلين.

فقد أصبح هذا العيد من الأعياد القومية في فرنسا وفي غيرها من دول أوروبا... وقد استمرت الكنيسة تساهم فيه منذ القدم، مع الأهلين، إلى أن كان القرن السادس عشر، عندما لاحظت الكنيسة بشكل عام أن حفلات هذا العيد قد تحولت إلى عبث ولهو إلى درجة الابتذال، فتوقفت عن المساهمة في إنجاحه وتقديم مختلف أنواع المساعدات الآيلة إلى ذلك... فتفرّد الشعب بالاحتفال به فعرف منذ ذلك العهد بعيد المرفع أو «الكرنڤال»...

* * *

هكذا انطلق الناس إلى الشوارع للمشاركة في احتفالات هذا العيد، فقصد بعضهم ميدان «لاجريف» قرب كاتدرائية نوتردام، حيث تقام الألعاب النارية التي تعطي بهجة أكثر من الألعاب العادية في الشوارع.

توجه البعض الآخر إلى دار العدالة، فهناك تقام في قاعتها الكبرى حفلة تمثيلية يسمح حضورها للجميع، ومجاناً.

هكذا أقبل الناس بكثرة على دار العدالة وبشكل أعظم من أي مكان آخر... يعود ذلك إلى كون الدار فيها جدران وسقف تقي المتفرجين والناظرين من مضايقات تقلبات الطقس.

إضافة إلى ذلك فقد أخذت التمثيلية أهمية أكثر من غيرها لأنه شاع أن النبلاء الذين أقبلوا من فلاندر برفقة الأميرة مرغريت خطيبة ولي عهد فرنسا سوف يشاهدون الحفلة التمثيلية في هذا العيد الواسع النشاطات.

وأخيراً...

سيتم في القاعة الكبرى انتخاب أمير المغفلين بعد الانتهاء من عرض التمثيلية.

لهذه الأسباب كانت شوارع باريس وأزقتها في ذلك اليوم أشبه بجداول تصب سيولها البشرية بمعظمها في فناء دار العدالة.

هكذا أصبح دار العدالة أشبه ببحر يعج بالناس على اختلاف أزيائها ومزاياها وكأنهم سيشاهدون أموراً لم يتعودوا على رؤيتها مطلقاً.

كان التزاحم والتدافع بالأيدي وبالمناكب بين الجماهير يحصل بدون أي تذمر أو تأفف من قبل أحد..

فكانت غايتهم الأولى الوصول إلى القاعة الكبرى وكأن من حل فيها قد حل في الجنة.

إلا أن هذه القاعة على سعتها وكبرها، كانت قد امتلأت بالمشاهدين قبل بزوغ

الشمس. فلم يبق فيها منفذ أو شق إلا واحتله المتفرجون.

يتعذر علينا أن نضع صورة أمام عيني القارىء صحيحة وكاملة لتلك القاعة الكبرى.

والحق يقال أنه لولا جرأة رافلياك وإقدامه على اغتيال هنري الرابع...

ولولا «رافلياك» حوكم، وكانت لقضيته وثائق أودعت دار العدالة...

ولولا أن بعض الناس كان يهمهم إبادة هذه الوثائق، فأحرقوا دار العدالة واحترقت معها الأوراق والاثباتات.

ولكننا نقول: اذهب إلى دار العدالة، أيها القارىء، وانظر بنفسك إلى قاعتها الكبرى، وذلك حتى تتعرف إليها عن كثب وتدرك حقيقتها.

فقد عرفت هذه القاعة على أنها كانت أعظم قاعة في العالم، في ذلك العهد، إذ كانت تشبه صالات المسارح الكبرى في هذا العصر، ولا تختلف إلا بكثرة أبوابها ووفرة أعمدتها الرخامية الضخمة.

لكنها تشتمل على مقصورة واحدة مخصصة لجلوس الملك والحاشية والأمراء في الحفلات الكبرى والمناسبات الرسمية.

كما اشتهرت هذه القاعة فوق كل ذلك:

بكونها تحتوي على مائدة هائلة الحجم منقطعة النظير، وقد نحتت طاولتها من قطعة رخامية واحدة...

يعود تاريخ هذه المائدة إلى عهد شارلمان.

لكن هذه المائدة الكبيرة تحولت إلى مسرح فيما بعد وأسدلت عليها الستائر، ونسي الناس أنها كانت مائدة كبيرة.

وقد وقف حول هذا المسرح (المائدة) أربعة من رجال الشرطة تتنقل

نظراتهم في كل الاتجاهات سعياً للحفاظ على الأمن وعدم وقوع أي شجار بين هذه الجماهير.

* * *

على القارىء أن يتصور هذه القاعة المترامية الأطراف، الواسعة الأرجاء، وعدد أبوابها الكبير وقد سدت كل منافذها وامتلأت برجال ونساء وفتيان من كل طبقات الشعب الفرنسي.

كما عليه أن يتصور مدى الضجيج الذي يحدثه حشد كهذا، وقد وصل إلى القاعة قبل بزوغ الفجر وأمضى كل هذه الساعات الطوال في تلاحم وتلاطم ومد وجزر. همه المشترك رفع الستار والبدء بالتمثيل.

على هوامش هذا الضجيج الصاخب كنت تسمع صيحات الضجر والتذمر، وكلمات التحدي والشجار، كما كنت تسمع ضحكة رنانة من حين إلى آخر، أو دعابة طريفة من أحد طلاب الجامعة الذين انتشروا في معظم أنحاء القاعة، ورابطوا في نوافذها، أو تعلقوا بأعمدتها، وحاولوا التماس بعض عناصر الترفيه من سأمهم ومللهم من هذا الجمع الحاشد ومن المواقف المشتة في كل نواحي القاعة.

فقد كان أكثر هؤلاء الطلاب مرحاً وأعلاهم صوتاً... شاب نحيف الجسم أشقر الشعر.. شاحب اللون... وقد انبطح على إحدى النوافذ، وراح يرمي مزاحاته وسخرياته هنا وهناك كما شاءت له السخرية والهزء ووفقاً لبعض المشاهد والمواقف التي تحصل ضمن هذه القاعة.

فقال له أحد زملائه:

ـ كم تشبه طاحونة الهواء وأنت منبطح هكذا على النافذة... منبسط الساعدين والساقين هكذا يا جيهان... كم أمضيت في هذا الوضع الذي لا يحسدك عليه أحد؟

فأجاب جيهان:

ـ أؤكد لك، بعد أن التفت إلى الساعة، أنني هنا منذ أربع ساعات، لكنني أعدك بكل ثقة أن هذه الساعات ستحسم من المدة التي سوف أقضيها في جهنم...

ثم تابع:

لكن من هذا الذي أراه بجوار المقصورة يا روبين بوسبان؟ أليس هو الأستاذ تيو عميد الكلية؟

ـ إنه هو فعلاً... ولكن كيف تمكن هذا المقامر العجوز أن يصل إلى هنا؟

ـ إنظر إلى أذنيه، ألا ترى أنهما أطول من أُذني البغلة التي يذهب بها إلى الجامعة؟

ـ ومن ترى بجواره؟ أوليس السيد جيلبرت دي سولي مدير جامعة «أوتون»؟

ـ إنه هو بعينه، آه!... أنت أقدر مني على تحريك ساعديك بحرية يا روبين، فخذ حذائي واقذفه به.

فقام بتنفيذ ذلك...

إنما شاء القدر أن ينجو مدير الجامعة من حذاء جيهان.

في هذه اللحظة دقت الساعة معلنة انتصاف النهار، فصعدت من أفواه العديد من الناس آهات طويلة وبصوت مرتفع.

بعد ذلك صمتوا بشكل مفاجىء...

وحبسوا أنفاسهم، واعتدلوا في جلساتهم في أماكنهم، وقاموا بتحويل أبصارهم نحو المقصورة، والمسرح.

فقد انحصرت أهداف الجمهور بعد الانتظار الطويل بثلاثة أشياء: انتصاف النهار، وقدوم الكاردينال دي بوربون، وبدء التمثيلية.

وساء مفهوم أن كل ذلك مرتبط ببعضه البعض، وستتم كلها في وقت واحد، إنما من سوء الحظ أن شيئاً واحداً فقط قد تحقق، فقد انتصف النهار في الموعد المقرر، لكن الكاردينال لم يحضر، ولم تبدأ التمثيلية.

ثم مرت دقيقة، ودقيقتان، وخمس دقائق، وربع ساعة، دون أن يفتح باب المقصورة أو يبدأ التمثيل.

هكذا بدأ الانتظار يتحول إلى سأم...

والسأم إلى تذمّر...

فردد بعض الناس في همس:

ـ ليبدأ التمثيل، ليبدأ التمثيل!

وتجمعت العاصفة في جو القاعة، ثم انفجرت حين صاح جيهان وهو يتلوى في مكانه كالثعبان:

ـ فليبدأ التمثيل فوراً، وليذهب الكاردينال إلى الشيطان.

فصفق الحاضرون وصاحوا:

ـ فليبدأ التمثيل، وليذهب الكاردينال إلى الشيطان.

ثم صاح جيهان، بحماس:

ـ ليبدأ التمثيل في الحال، وإلا سنحطم المسرح ونمزق رجال الشرطة.

فصاح الجمهور بعده:

ـ لنحطم المسرح، ولنمزق رجال الشرطة.

فامتقعت وجوه رجال الشرطة الأربعة... ونظروا إلى بعضهم البعض...

فتحرك الجمهور نحوهم، فالتوى الفاصل الخشبي الموجود بين المسرح والجمهور.

وكاد يتحطم تحت ضغط غضب الجماهير.

فأصبح الموقف حرجاً للغاية...

فصاح الجمهور:

ـ ليسقط رجال الشرطة.

فتراجع رجال الشرطة إلى الوراء.

أثناء ارتفاع وتيرة التوتر هذه، ظهر على المسرح رجل، فكان ظهوره هذا كافياً لتهدئة الجمهور، وتحويل غضبه عن رجال الشرطة، وأثيرت حشريته، وانطلقت صيحات عن المسرح، ومن بعض نواحي الجمهور

ـ اصمتوا، اصمتوا

اقترب الرجل الذي ظهر على المسرح من حافة المائدة الرخامية، وهو يرتجف من الخوف والهلع. فوقف متردداً..

ثم قال بلسان متلعثم:

ـ حضرات... حضرات... السادة... يشرفنا بأن نمثل أمامكم وأمام نيافة الكاردينال، تمثيلية أخلاقية بعنوان «الاختيار الحكيم»...

أما أنا فسأقوم في هذه التمثيلية بدور «جوبيتر»...

وفور وصول الكاردينال سيرفع الستار وتبدأ التمثيلية.

الفصل الثاني

من هو بيار جرنجوار؟

أصبح موقف رجال الشرطة الأربعة في حالة حرج، فلا هم مستعدون للهرب أو الانسحاب على مرأى من كل الناس، ولا واجبهم يفرض عليهم ذلك ولا يمكنهم مقاومة هذه الجماهير برمتها... لكن ظهور «جوبيتر» في تلك اللحظة أنقذ مصير رجال الشرطة من حالتهم السيئة.

يرتدي «جوبيتر» خوذة فولاذية وثياباً سوداء مزركشة بالذهب وعدة معادن أخرى، وينتعل حذاءً مميزاً... فور وصوله إلى المسرح أثار فضول المشاهدين والتفتوا نحوه..

لكنه ما أن لفظ عبارة «ننتظر وصول الكاردينال» حتى عاد الغضب يعترم في صدور الناس على كل شعور آخر... فنسيوا رجال الشرطة ونسيوا مظهر «جوبيتر» المميز.

فارتفعت الصيحات من كل ناحية:

ـ بل أبداً الآن، أبداً الآن!

ثم صرخ جيهان:

ـ ليسقط «حوبيتر»، ليسقط الكاردينال دي بوربون.

فصاح روبين بوسبان:

- إبدأ! وإلا شنقناك.

فذعر جوبيتر وتبدل لونه!

ثم غمغم وهو يرفع خوذته ويحني قامته المرة بعد الأخرى.

- سيداتي، سادتي!... أيها السادة!...

ولم يعرف ما يقول لكثرة تشوشه!...

فسبب اضطرابه يعود إلى أمرين:

إذا انتظر وبقي على المسرح فإنه يخشى أن يشنقه الجمهور، وإذا لم ينتظر ويبدأ بالتمثيل فإنه يخشى أن يشنقه الكاردينال لذلك احتار في أمره، ولم يدرِ ماذا يجب أن يفعل!...

لحسن حظه، تقدم شاب منه، في تلك اللحظة، وأنقذه من ورطته!...

كان هذا الشاب واقفاً لوحده قرب أحد الأعمدة القريبة من المسرح، وقد بقي هادئاً ساكناً طوال هذه الفوضى وهذا الهياج الشعبي، لم ينطق بكلمة ولم تفارق الابتسامة شفتيه.

عندما رأى هذا الشاب الخطر المحدق بالممثل جوبيتر، عقد جبينه وتقدم خطوة إلى الأمام ونادى الممثل:

- جوبيتر، جوبيتر.

إلا أن جوبيتر كان في حالة يرثى لها من الخوف والفزع... وقد أصمه صياح الجمهور الغاضب فلم يسمع نداء الشاب.

فناداه الشاب مرة ثانية وثالثة... حتى فرغ صبره، فخطا إلى الأمام خطوة ثانية وصاح:

- ميشيل جيبورن!

عند ذلك رفع جوبيتر رأسه... وتطلع حوله كمن استيقظ من نومه فجأة وسأل:

ـ من ذا الذي يدعوني؟

فقال الشاب:

ـ أنا أدعوك

ـ آه...

ـ إبدأ التمثيل في الحال يا ميشيل، وسوف اقنع مدير الشرطة وهو بدوره يتولى إقناع الكاردينال متى حضر.

فتنهَّد جوبيتر وتنفس ملء رئتيه، ثم صاح:

ـ أيها السادة، سنبدأ في الحال.

فصرخ جيهان:

ـ ليحيا جوبيتر

فدوت في القاعة عاصفة من التصفيق، استمرت حتى توارى جوبيتر وراء الستار.

فساد الهدوء... واستقر وضع رجال الشرطة...

أما الشاب المجهول الذي حرَّك الوضع وأنقذ موقف الجميع بأحداث هذا التحول العجيب، فقد تراجع إلى مكانه ولصق بالعمود.

وكان سيعود حتماً إلى هدوئه وصمته لولا أن فتاتين بالقرب منه سمعتا ما دار بينه وبين الممثل من حديث.

فنادته إحداهن بقولها:

ـ سيدي...

فهزتها زميلتها وقالت لها:

ـ ما شأنك به يا لينا؟

إلا أن الشاب كان قد سمع نداءها... فسألها بكل تهذيب:

ـ أتتحدثين إلي أيتها الحسناء؟

فتبدل وجه الفتاة وصعد الدم إليه بكثرة حتى أصبح أحمر قان... وقالت:

ـ كلا، إنها زميلتي جيزيل التي نادتك

فأصاب جيزيل ما أصاب رفيقتها وهتفت بدورها:

ـ كلا، كلا، إن لينا هي التي نادتك.

بعد ذلك أطرقت الفتاتان برأسيهما.

فأدرك الشاب وضعهما، فابتسم وقال:

ـ إذن فلستما بحاجة إلى التحدث إلي؟

فتشجعت لينا وقالت:

ـ هل تعرف هذا الجندي الذي ظهر الآن على خشبة المسرح؟

ـ تقصدين ميشيل جيبورن الذي سيقوم بدور جوبيتر الآن؟

نعم إنني أعرفه.

فقالت جيزيل:

ـ ما أجمل ثيابه ولحيته.

وسألت لينا بخجل واحتشام:

ـ وهل سنشهد الآن رواية شيقة.

فقال الشاب بدون تردد.

ـ أؤكد لك أنها فعلاً شيقة.

وساد الصمت لحظة.

ثم استطرد الشاب قائلاً.

ـ إنها مسرحية جديدة، لم يتم تمثيلها قبل الآن مطلقاً.

فهتفت جيزيل:

ـ آه، مما لا شك فيه أنها تختلف عن المسرحية التي شاهدناها في العام الماضي، والتي قامت بأدوارها ثلاث فتيات جميلات كن...

فقاطعها الشاب:

ـ لا، بل سنجد أن لمسرحية اليوم مغزى خاصاً، وقد وضعت خصيصاً لمناسبة زواج ولي العهد والأميرة مرغريت.

ثم سألت لينا بلهفة.

ـ وهل ستدخلها أغان غرامية؟

فقطب الشاب شفتيه ثم قال:

ـ آسف، فالأغاني الغرامية لا تناسب موضوع هذه المسرحية

فتنهدت جيزيل وغمغمت:

ـ واأسفاه!

فقال لها الشاب:

ـ لكن هذه المسرحية ستكون أبدع من أية مسرحية أخرى شاهدتماها هنا.

ـ يبدو أنك واثق!

فأجاب الشاب بهدوء وبلهجة التأكيد:

ـ كل الثقة، فأنا مؤلفها.

فصاحت الفتاتان بصوت واحد:

ـ أحقاً ما تقول!...

ونظرتا إليه بإعجاب...

فقال بعد أن ظهر عليه شعور الخيلاء:

ـ أجل، إنني مؤلف هذه المسرحية، واسمي بيار جرنجوار.

ما أن انتهى هذا الحديث القصير حتى عرَّف المؤلف فيه عن نفسه، كان الجمهور ينتظر بدء التمثيل بكل هدوء إنما بفارغ الصبر.

وقد تعجب البعض من هذا السخط والغضب خاصة بعد وعد الممثل...

إلا أن هذا الانقلاب السريع إنما يدل على الحقيقة الخالدة التي نشاهدها كل يوم على مسارحنا ونشاهد من يؤديها بكل وضوح. وهي أن أفضل وسيلة لتهدئة الجمهور هي أن تؤكد لهم باستمرار أن التمثيل سيبدأ فوراً...

على كل حال، فإن جيهان لن يتغلَّب عليه النعاس، لأنه لم يتوانَ عن تبديد السكون عندما قال:

ـ أين أنت يا جوبيتر؟ هل تسخر منا أيها الشيطان؟

فكان لهذه الكلمات تأثيرها المطلوب، فعزفت الموسيقى وسمعت أصواتها وراء الكواليس.

وما لبث أن رفع الستار، وظهر الممثلون على المسرح، فهتف الجمهور وقابلهم بعاصفة من التصفيق المدوي...

وبدأ التمثيل حين قال أحدهم:

ـ مقدمة الرواية...

إلا أننا سنضرب صفحاً عن هذه المقدمة رحمة بالقارىء... وحسبنا أن نقول إن الجمهور اهتم برؤية ثياب الممثلين أكثر من اهتمامه بما يقولونه ضمن موضوع التمثيلية وقد كانوا محقين في ذلك.

إثر ذلك ظهر على المسرح أربعة من الممثلين، يرتدون ثياباً تلفت الأنظار بألوانها

الزاهية... وقد نقش على ذيل كل ثوب إسم الشخصية التي يقوم بتمثيل دورها الممثل.

وبدأ التراشق بالقصائد بين الممثلين، وأبيات الشعر تقتتل في أفواههم اقتتالاً.

لم يكن بين الجمهور، وعدده بالآلاف، إنسان أشد إصغاء وأعظم انتباهاً من بيار جرنجوار...

ولم يكن هناك قلب ينبض بقوة كقلبه...

ولا أذن مرهفة السمع كأذنه...

ولا رقبة ممدودة كرقبته...

وهكذا، أصغى بيار جرنجوار... وأصبح ثملاً بالنشوة التي يشعر بها المؤلف، وهو يسمع كلامه وآراءه تنطلق من فم كل الممثلين.

لكن الحظ قد عاكسه، لتتحطم كأس البهجة والفرح والفوز بين يديه قبل أن يصل عصيرها (أو نبيذها) إلى شفتيه!

يعود سبب ذلك إلى كون سائل رث الثياب، كان قد احتل مكاناً بالقرب من المقصورة.

لعل هذا السائل لم يجد في جيوب الجماهير التي تحيط به ما يعوضه عن الساعات الطويلة التي قضاها في تلك القاعة...

فخطر بباله أن يلفت الأنظار إليه ربما تتحرك شفقتهم إذا لوَّح لهم بثيابه المهلهلة. ومن ثم لجأ إلى عرض جرح عميق بشع في ساعده الأيمن.

ففي حين كان الناس مهتمون بمقدمة الرواية، تسلق أحد الأعمدة إلى أن وصل إلى حافة المقصورة... وجلس عليها.

وحدث أن شاهد جيهان هذا السائل على حافة المقصورة الملكية، فانفجر ضاحكاً:

وصاح وسط السكون الشامل قائلاً:

ـ أنظروا هذا الوغد البارع، المهلهل الثياب وقد احتل جانب المقصورة الملكية.

فكان لصاحبه هذا، إضافة إلى ضحكته الفجائية، أثر بالغ الأهمية على الجمهور، فأحدث فيه ما يحدثه إلقاء حجر في مستنقع مليء بالضفادع.

فكان من نتيجة ذلك:

- صمت الممثلون على المسرح.
- حوَّل الجمهور أنظاره نحو السائل وامتلأ جو القاعة بقهقهة عالية.

أما السائل فقد انتهز فرصة توجه الأنظار نحوه، فأغمض عينيه، وبسط ساعده الجريح وقال بصوت مؤثر:

ـ إنني فقير وجوعان.

فصاح جيهان من جديد:

ـ يا إلهي، إنه كلوبان ترولفو... قبحك الله يا كلوبان، كيف استطعت أن تنقل الجرح من ساقك إلى ساعدك.

إثر ذلك ألقى إلى السائل قطعة من النقود تلقفها كلوبان ببراعة، ثم بسط يده مرة أخرى وقال:

إنني جوعان...

فقهقه الجمهور بصوت مرتفع...

عضّ بيار جرنجوار على شفتيه وصاح بالممثلين الأربعة قائلاً:

ـ استمروا، استمروا... لماذا تصمتون؟

ثم أحس بيد توضع على كتفه، فحول نظره ورأى جيزيل، فاضطر أن يتبسم رغم غضبه وغيظه.

فسألته الفتاة:

ـ هل يستمر التمثيل يا سيدي؟

فأجابها وقد أزعجه السؤال:

ـ طبعاً، طبعاً!

في هذه الحالة، هل تتفضل بأن توضح لي...

فقاطعها قائلاً:

ـ أوضح لك ما سيقوله الممثلون، ليس عليك سوى أن تنصتي.

ـ كلا، بل أرجو أن توضح لي ما قالوه؟

فأدار جرنجوار رأسه نحوها، كمن تلقى طعنة في جرح وتمتم بصوت منخفض:

ـ قبحك الله من فتاة غبية... ألا تفهمين ما يقوله الممثلون؟

وهكذا سقطت جيزيل من اعتباره.

لكن الضجة ما كادت تهدأ، وما كاد الممثلون يعودون إلى عملهم حتى دوى صوت الحاجب وهو يصيح:

ـ صاحب النيافة الكاردينال دي بوربون.



أمير المغفلين

يا لحرج بيار جرنجوار!...

فلو أطلقت عشرات المدافع حوله في تلك اللحظة لما أحدثت في أُذنيه دوياً أقوى من ذلك الذي أحدثت كلمات الحاجب...

رغم أن جرنجوار لم يكن يخشى الكاردينال أو يحتقره، ولم يكن من الجبن أو الوقاحة كي يفعل هذا أو ذاك. بل إنه على عكس ذلك. كان يرغب من كل قلبه أن يصغي رجل دين عظيم كالكاردينال دي بوربون إلى أنواع المديح التي صاغها بكل لباقة لولي العهد وخطيبته.

لكنه اضطرب وانزعج، ولعن الكاردينال بينه وبين نفسه...

وذلك لأنه أدرك بأن قدوم الكاردينال في تلك اللحظة سوف يصرف الجمهور مرة أُخرى عن الاستماع لمسرحيته الخالدة ويتحول الانتباه عنها.

بالفعل تحققت ظنونه...

فما أن أعلن الحاجب قدوم الكاردينال حتى تحولت الأنظار ناحية المقصورة الملكية، ورددت جميع الأفواه بصوت واحد:

ـ الكاردينال... الكاردينال!

واضطر الممثلون أن يصمتوا ويتوقفوا عن متابعة التمثيل للمرة الثانية.

وقف الكاردينال لحظة في باب المقصورة وألقى نظرة سريعة على المشاهدين...

في هذه اللحظات ازداد الاضطراب في القاعة وراح كل مشاهد يتطاول بعنقه وبجسده ليرى نيافة الكاردينال دي بوربون...

في الحقيقة، كان الكاردينال من الشخصيات المحبوبة في باريس، ذلك لأنه شخص مرح يحب أنواع النبيذ التي تصنع من الكروم الملكية، ولا يوقف أو يتعالى على مختلف نشاطات التسلية الشعبية كلعب الورق وغيره...

كما أنه من ناحية ثانية يوزع بره وخيراته وتبرعاته على حسان الفتيات لا على العجائز.

ومما لا شك فيه أن مكانته مميزة في نفوس الباريسيين، وهذا أمرٌ يجعله ينجو بسرعة من حماقات المتفرجين الذين أعلنوا مواقفهم ضده منذ بضع دقائق...

أضف إلى ذلك يبدو الكاردينال بهي الطلعة، مهيب، جميل التقاطيع، يعتني بارتداء ملابسه الأنيقة، ووشاحه الأحمر الموشى بالذهب.

عندما دخل الكاردينال المقصورة، حنى قامته للجمهور وعلى شفتيه تلك الابتسامة التقليدية التي يقابل بها عظماء الجماهير...

ثم جلس على المقعد الكبير، وأحاطت به حاشيته المؤلفة من مجموعة من الأساقفة ورجال الدين...

مع دخول الكاردينال وحاشيته حصلت ضجة عظيمة، خاصة وقد أطلق جيهان عدة نكات سخرية برجال الدين، رغم أن شقيقه كان من الأساقفة المعروفين في باريس.

إلا أن الكاردينال لم يلق بالاً إلى نكات جيهان وزملائه طلاب الجامعة، كما إنه لم يعبأ بالضجيج الذي ملأ كل جوانب القاعة. وكأنه لم يسمع شيئاً منها... في الواقع كانت تبدو على محياه علامات التفكير والرصانة...

كان الكاردينال مهتماً، متبرماً لا بسبب شؤون الدولة ولا بأمور الكنيسة بل لأن الملك فرض عليه مهمة استقبال النبلاء والأعيان الذين أقبلوا من «فلاندر» برفقة الأميرة مرغريت...

فهذه المهمة جعلته ضجراً مشمئزاً لأنها فرضت عليه أن يحترم أشخاصاً لا يمتازون بطباعهم عن طباع الفلاحين البسطاء.

وبفضل هذه المهمة، كان عليه أن يستقبل أولئك الأعيان في تلك المقصورة...

ومن ثم عليه أن يحترمهم ويجعلهم أمام هذه الآلاف من المشاهدين.

* * *

أخيراً استقر الكاردينال في مقعده واستقرت حاشيته معه. وما أن حصل ذلك حتى أعلن الحاجب قدوم أعيان فلاندر.

فتبرَّم الكاردينال، ونهض وافقاً، واظهر على فمه تلك الابتسامة التقليدية العذبة في ظاهرها لكنها غير صادقة هذه المرة.

فاستقبل أعيان فلاندر، على مدخل المقصورة، وأكمل استقباله لوفد من الملوك والأمراء...

في مقدمة هؤلاء الأعيان دخل شخص طويل القامة ضخم الجسم، تدل نظراته عن مستوى رفيع من الذكاء والحنكة، فقبل يد الكاردينال، وجلس على مقعد في أحد أركان المقصورة.

هذا الشخص هو جاك كوبنول المعروف لدى أهل فلاندر باسم «صديق الشعب» وذلك لأنه ديمقراطي التصرف، ينظر دائماً في أحوال الطبقات المتواضعة في فلاندر، ويساعدها في حل مشكلاتها.

ويروى عنه... أنه الشخص الوحيد الذي كان لويس الحادي عشر يحسب له ألف حساب.

* * *

كان استقبال أولئك النبلاء والأعيان من قبل الكاردينال دي بوربون وبأكثر مما يستحقون من إجلال واحترام، عبارة عن آخر قطرة في كأس المذلة التي حتمت عليه واجباته ومهماته أن يتجرعها حتى الثمالة، وهو هادىء، صامت، رابط الجأش، متظاهر بالرضى.

وكان إن جلس جاك كوبنول أمام المكان الذي اتخذه كلوبان ترولفو مقعداً مختاراً.

ربما يكون كلوبان الوحيد الذي لم يحوِّل رأسه يمنة أو يسرة عندما دخل الكاردينال ومن ثم ضيوفه.

فقد بقي رابضاً في مكانه، وعلى حافة المقصورة، وهو يلوِّح بثيابه المهلهلة...

لكنه كان يردد بصوت خافت وبلهجة آلية:

ـ أنا جوعان... إنني أتضور جوعاً...

عندما جلس جاك كوبنول... تحوَّلت إليه الأنظار...

فرأى الجميع ضمن حقل رؤية كوبنول ذلك السائل الجريء، وهو قابع في مكانه بارتياح...

وقد كانت دهشة الناظرين كبيرة عندما أبصروا جاك كوبنول وهو ينحني من مكانه ويصعد كلوبان برولفو بعينيه، ثم يضع يده على كتفه برفق كما يفعل الأصدقاء الودودون.

فشعر كلوبان باليد التي وضعت على كتفه!

فنظر وراءه بدهشة...

والتقت عيناه بعيني كوبنول، وبدت على وجهي الرجلين علامات التفاهم، والمعرفة والسرور.

فبسط كل منهما يده إلى الآخر...

وتصافحا بحرارة...

فأثار هذا المنظر دهشة الجمهور وخفف من مرحه وهياجه.

في هذه اللحظة كان الكاردينال لا يزال في شغله باستقبال ضيوفه.

ولما سمع ضحكات المتفرجين، نظر إليهم، ثم نظر إلى حيث ينظرون ورأى كلوبان...

وأدرك فوراً أنه يستجدي...

فصاح بأحد رجال الشرطة قائلاً:

ـ أيها الشرطي! أقذف بهذا المتسول القذر إلى النهر.

فصاح كوبنول:

ـ ماذا دهاك يا سيدي الكاردينال؟ إن هذا المتسول القذر هو صديقي!

فصفق المشاهدون...

وتصاعد هتاف الحسان من كل ناحية من القاعة.

فكان هذا الموقف لصالح كوبنول وغير محبب بالنسبة إلى الكاردينال، إذ منذ تلك اللحظة، بدأ الباريسيون يحبون كوبنول، أكثر مما أحبه أهل فلاندر وتحفظوا بالنسبة لاحترامهم للكاردينال...

فما كان من الكاردينال إلا أن عضَّ على شفتيه وهمس في أذن أحد مرافقيه ساخراً.

ـ ما أشرف هؤلاء النبلاء الذين رماني بهم جلالة الملك!

أمام كل هذه التمثيليات الخفيفة، كان لا بد من جرنجوار إلا العمل على انقاذ مسرحيته بكل الوسائل المتاحة. فأهاب بالممثلين أن يستأنفوا عملهم، وأن يرفعوا أصواتهم.

لكنه رأى بعد لحظة، أن أحداً لا يعبأ بهم، ولا ينصت إليهم، فأمرهم بالتزام الصمت.

ثم عاد إلى التنقل هنا وهناك... وعاد إلى جيزيل ولينا يحثهما كي تحثا جيرانهما على المطالبة باستئناف التمثيلية.

لكن جهوده ذهبت سدى... فلا نتيجة.

فالأنظار كلها موجهة إلى مقصورة الكاردينال، وثمة سبب آخر يؤسفنا إن نذكره هنا وهو أن الجمهور بدأ يسأم تلك «المقدمة» التي لا تنتهي...

هكذا اضطر جرنجوار أن يصمت على مضض... وانتظر حتى عاد الهدوء إلى الجمهور.

فبدأ جرنجوار يقوم بمحاولة جديدة لإحياء مجده.

فقال موجهاً كلامه إلى شخص بجانبه تدل ملامحه على سعة صدره:

ـ ألا تظن أنه من الأفضل استئناف التمثيل؟

فهز كتفيه وقال:

ـ الأمر عندي سيان.

فوجد جرنجوار في هذا الثناء المتواضع ما شد أزره، فزج بنفسه بين المشاهدين بسرعة قدر ما استطاع...

وراح يصيح بكل قواه وهو يشق الجماهير قائلاً:

ـ الرواية، الرواية... فليستأنف التمثيل!

فسمعه جيهان وهو في مكانه في النافذة.

فصاح بكل قواه:

ـ من هذا الحيوان الذي يملأ الدنيا بصراخه؟ إن التمثيل قد انتهى ولا يمكننا السماع لكلمة أُخرى من هؤلاء الثرثارين... أليس كذلك أيها الزملاء؟

فصاح زملاؤه طلاب الجامعة:

ـ أجل! أجل! لتسقط الرواية

لكن جرنجوار ازداد حركة ونشاطاً...

ثم صاح بالممثلين:

ـ استمروا، استمروا!

فتقدم جوبيتر من المقصورة... واستأذن الكاردينال في استئناف التمثيل أو أنه يبدأ من جديد؟

أما الكاردينال فهز كتفيه، ثم التفت إلى كوبنول قائلاً:

ـ ما رأيك يا سيدي؟

فقال كوبنول:

ـ أنا أقول، إننا نجونا من نصف الرواية، فحبذا لو أجهزوا على النصف الآخر بأسرع ما يمكن.

فتنفس جرنجوار الصعداء، وأيقن أن التمثيل سيستمر، ولا يقاطع مرة أخرى...

إلا أن القدر شاء لهذا الأمل أن يتحطم مع سائر الآمال التي عقدها على نجاح الرواية.

وما كادت السكينة تستتب في القاعة... وما أن بدأت القصائد تأخذ برقاب بعضها البعض على أفواه الممثلين، حتى تثاءب جيهان بصوت مسموع.

فنهض كوبنول واقفاً... ثم قال بصوت رنان:

ـ لا أعرف فعلاً ماذا تفعلون هنا أيها السادة، أمام مجموعة من الممثلين الذين يتشاحنون، ويوشك كل منهم أن ينقض على زميله.

وقد مرت بضع دقائق، وأنا أتوقع أن يبدأ الخناق بينهم إنما بغير جدوى.

فإذا كنتم ترون أن ما نشهده ونسمعه هو رواية تمثيلية، فإنني أقول لكم إنها

رواية غير شيقة، وغير مسلية، ولا صلة لها لا من قريب ولا من بعيد بما أتينا من أجله إلى هنا.

فقد قيل لنا أننا سنشهد هنا حفلة انتخاب «أمير المغفلين» ونحن في فلاندر نحتفل كذلك بهذا العيد، وعلى ما أعلم أن طريقتنا في انتخاب أمير المغفلين لا تختلف عن طريقتكم.

عندما نأتي بجمع غفير كهذا الجمع الموجود هنا الآن، ونضع عند أحد الأبواب لوحة مثقوبة... ونطلب من كل إنسان أن يطل رأسه من الثقب، فمن كان أبشع الجميع وجهاً انتخبناه «أمير المغفلين»... وبعد ذلك نطوف به في أرجاء المدينة وسط موكب حافل من المشاهدين والمشاركين.

إنها طريقة مسلية بدون شك... فإذا شئتم... دعونا ننتخب أمير المغفلين على هذا النحو.

وأنا أؤكد لكم أنكم ستجدون بهذا النشاط الجماعي من وسائل المرح والتسلية واللهو أكثر بكثير ممن ستجدونه في ثرثرة هؤلاء الممثلين فما رأيكم في ذلك أيها السادة؟

حاول جرنجوار التكلم، إنما عبثاً، وحاول ثانية أن يحتج على كلام الرجل واستنكاره واشمئزازه منه...

إلا أن صوته ضاع وسط هتاف الاستحسان الذي قوبل به اقتراح كوبنول بين الجماهير.

فما كان من بعض المتبرعين أن أحضروا بأسرع من لمح البصر العدة اللازمة لتنفيذ اقتراح انتخاب «أمير المغفلين».

فساهم الطلاب، وكافة المشاهدين في إخراج فكرة كوبنول إلى حيز التنفيذ...

وأصبحت عملية الانتخاب جاهزة للتنفيذ...

الفصل الرابع

من هو كازيمودو؟

في الناحية الأخرى من القاعة في الجهة المقابلة للمائدة الرخامية التي أصبحت مسرحاً، توجد غرفة متوسطة المساحة وفيها نافذة صغيرة مستديرة تطل على القاعة الكبرى، تم تحطيم زجاج النافذة لتصبح المكان المناسب ليطل كل مرشح برأسه من هذه النافذة على المشاهدين.

تقرر أن يجتمع في تلك الغرفة جميع الذين يرشحون أنفسهم للحصول على لقب «أمير المغفلين».

ومن ثم يطل على كل مرشح من النافذة الواحد تلو الآخر.

وعلى المشاهدين أن يحكموا على نصيب المرشحين من الدمامة، ومن ثم يختاروا أكثرهم بشاعة ودمامة... فيبايعوه أميراً للمغفلين.

أصبح جاك كوبنول المايسترو، استقر في مكانه وأخذ يصدر الأوامر والتعليمات، والجمهور يسارع في تنفيذها.

أما الكاردينال فلم يطق صبراً على الضجيج والصياح.

فاعتذر لضيوفه لارتباطه بمواعيد وأعمال خاصة، ولاذ بالفرار دون أن يشعر أو يهتم به أحد من المشاهدين...

في هذه اللحظة تحوَّلت الأنظار إلى النافذة المحطمة الزجاج...

وبدأت المباراة عندما بدأ المرشحون بإطلال وجوههم منها.

وما لبث أن أطل منها وجه بشع مجعَّد ذو عينين حمراوين وفم واسع يشبه فوهة الحذاء...

فصفق المشاهدون... وانطلق الضحك في كل القاعة وامتلأت بالهرج والمرج...

استمر ذلك خاصة مع إطلالة الوجه الثاني والثالث والرابع... الخ.

وكان كل وجه يقابل بعاصفة من التصفيق والهتاف والصفير والضحك ولا يخلو ذلك من رش بعض النكات بأساليب وطرق مختلفة...

أما جرنجوار فلم يقنط رغم انصراف الجمهور عن روايته واستمر بصراخه من أجل جلب الأنظار إلى روايته لكن دون جدوى.

فأخذ يسير أمام المسرح جيئةً وذهاباً.

ثم خطر له الذهاب إلى قاعة المرشحين، ويطل بدوره من النافذة، ويخرج لسانه لأولئك المشاهدين المغفلين وغير المثقفين...

إلا أنه عاد وتمالك نفسه، وكظم غيظه وقال لنفسه:

ـ كلا،... كلا، إن حب الإنتقام من صفات الأشرار فلنناضل حتى النهاية... فللشعر سلطان على الجماهير دونه كل سلطان...

وسنرى أيهما يفوز في النهاية: قصائدي البارعة، أو هذه الوجوه البشعة.

وكانت له التفاتة، فرأى رجلاً بديناً مستنداً إلى أحد الأعمدة بعيداً عن كل المشاهدين...

فظن جرنجوار، أن هذا الرجل ينصت باهتمام إلى كلام الممثلين، فاقترب منه، وقال له بكل احترام وإخلاص واعتراف بالجميل:

ـ سيدي، إنني أشكرك من كل قلبي.

فتثاءب الرجل وسأله:

ـ لماذا تشكرني سيدي؟

ـ لا شك أن ضجيج الجمهور يزعجك، ويحول بينك وبين سماع كل ما يقال من أشعار على المسرح... إلا أن ذلك لا يمنعني من أن أشكرك لاهتمامك بتشجيع الشعر والتمثيل... فهل لي أن أسألك عن رأيك في هذه الرواية؟

بدا النعاس على الرجل ففرك عينيه وقال وهو يتثاءب مرة أخرى:

ـ للحقيقة، إنها رواية سخيفة.

عند ذلك اضطر جرنجوار أن يقنع بهذا الرأي، وارتفعت في تلك اللحظة عاصفة من التصفيق والهتاف...

ثم تصايح الناس من كل صوب قائلين:

ـ هوذا أمير المغفلين!... ليحيا أمير المغفلين.

فقد رأى الجمهور في النافذة الوجه الذي جعل كوبنول نفسه يصفق ويغرق في الضحك...

فحمل ذلك كلوبان ترولفو ـ رغم دمامة وجهه، وبشاعة سحنته ـ على أن يسحب ترشيحه، من المباراة، ويعترف بالهزيمة أمام هذا الوجه.

فقد رأى وجهاً ليس كوجه البشر، وجهاً انطمست إحدى عينيه، وتألقت العين الأخرى تحت حاجب كث الشعر كأنه قطعة جلد من القنفذ وفي وسطه أنف قصير ناتىء، كأنه ألصق في مكانه لصقاً.

وتحت هذا الأنف فم واسع كأنه حدوة حصان، تطل منه أسنان طويلة مبعثرة بغير انتظام، وقد برزت إحداها فبدت أشبه بنياب الفيل.

هذا هو الوجه الذي ضج المشاهدون ضحكاً ودهشة وفضولاً عندما أبصروه يطل من النافذة.

إثر ذلك هرول عشرات المشاهدين إلى الغرفة التي تضم المرشحين، وتحولوا نحوها وسط حملة من المرح والدهشة والانتصار بالمخلوق العجيب الذي بايعوه إمارة المغفلين بلا انقطاع بل مع انقطاع إكمال المباراة.

لكثرة دهشة المتفرجين عندما رأوا أن دمامة هذا المخلوق حقيقة ليس فيها أموراً مصطنعة، وإن بشاعة تكوينه الجسماني لا تقل عن بشاعة وجهه...

لقد كان محدوب الظهر بارز الصدر، غائر الرأس، وتشكل ساقيه منظراً عجيباً. إذ أنهما تلتقيان عند الركبتين وتتفرعان في خط يكاد يكون مستقيماً، وتنتهيان بقدمين متناهيتين في الضخامة.

مع وجود هذه البشاعة الصارخة، والدمامة المنقطعة النظير، فقد كانت تبدو على هذا المخلوق العجيب علامات القوة، والخفة مع الشجاعة والإقدام!.

وهذا أمر شاذ عن النظرية المألوفة، والتي تقول بأن القوة والجمال لا يحصلان إلا مع تناسب الأعضاء وتناسقها.

فقد كان هذا المخلوق في مجمل تكوينه عبارة عن عملاق هائل تحطم ثم أعيد بناؤه كيفما اتفق وبدون تناسق أو تناظر...

وما أن خرج «أمير المغفلين» هذا من القاعة الكبرى ورأى الناس معطفه الأحمر الذي انتشرت عليه نقوش تشبه النواقيس، حتى عرفه الكثيرون وارتفعت الصيحات في كل جانب:

ـ إنه كازيمودو، قارع الأجراس.

«كازيمودو أحدب نوتردام»

«كازيمودو الأعور»

«كازيمودو الأعرج»

وهكذا استمرت الألسنة بتعداد ألقابه وصفاته.

فصاح أحد الطلاب:

ـ لتكن النساء الحبالى على حذر!

فأخفت جميع النساء وجوههن بين أيديهن...

ثم صاحت إحداهن:

ـ يا له من قرد دميم!

وأكملت الثانية:

ـ إنه لشيطان بلحمه ودمه!

وقالت ثالثة:

ـ إني سيئة الحظ لأني أقطن بالقرب من كاتدرائية نوتردام، وأسمع في كل مساء وقع «حوافره» على سقف الكاتدرائية.

ـ يا إلهي!... وهل يعيش فوق السطوح بين القطط؟

ـ لقد قابلني منذ أيام، تحت جنح الظلام، فأطل في وجهي فظننته رجلاً لكنه أدبَّ الذعر في قلبي.

ـ يا للأحدب البشع!

لكن الرجال كانوا أكثر مرحاً، وأشد حماساً وارتياحاً.

فما كانت ردة فعل كازيمودو؟

وقف كازيمودو أمام تلك الجماهير الصاخبة، وهو هادىء ساكن لا ينطق ببنت شفة ولا يأتي بحركة، ولا يفعل شيئاً أكثر من أن ينقل عينه التي تشبه عين القرد بين آلاف الوجوه الضاحكة.

كان من الممكن أن يبقى هادئاً وساكناً لولا اقتراب روبين بوسبان منه وقهقه في وجهه بشكل فجائي.

بقي كازيمودو صامتاً، إلا أنه أمسك بالشاب وحمله بين يديه بقوة الجبابرة وقذفه إلى مسافة تزيد على عشرة أمتار، فسقط الشاب وسط الجمهور وهو يئن ويتأوه، ويطلق اللعنات على كازيمودو.

أوقفت الدهشة كوبنول أمام هذه القوة عند كازيمودو فصاح:

ـ يا إلهي! ما هذا! والتفت نحو كازيمودو وقال:

ـ إنك أبدع رجل دميم بين الخليقة رأيته في حياتي.

بعد ذلك ألقى بيده على كتف كازيمودو واستطرد.

ـ أنا معجب بصلابة عضلاتك وبودي أن أنازلك في ميدان المصارعة. ولو اضطررت إلى شراء ثوب جديد، فما قولك بذلك؟

إلا أن كازيمودو لم يجبه، فصاح:

ـ ماذا؟ هل أنت أصم؟

واستدار ذلك المخلوق الجبار تحت إلحاح كوبنول، فتحول إليه فجأة وعلى وجهه آية من آيات القساوة والوحشية... فلم يتمالك كوبنول فانكمش وتراجع إلى الوراء كما يتراجع القط أمام الكلب المتحفز...

إثر كل ذلك، استطاع هذا المخلوق، الذي أساءت الطبيعة تكوينه، أن يرسم دائرة من الذعر والإحترام لا يقل قطرها عن عشرين متراً.

تدخلت إحدى العجائز وقالت موجهة كلامها إلى كوبنول:

ـ نعم إنه أصم.

فصاح كوبنول:

ـ أصم؟ يا إلهي، إذن إنه أعظم أمير للمغفلين انتخبه الباريسيون حتى اليوم.

من ناحية أخرى غادر جيهان الغرفة واقترب من الجمهور قائلاً:

ـ نعم، إنه قارع النواقيس في كاتدرائية نوتردام عند أخي، والتفت إلى كازيمودو قائلاً: طاب يومك يا كازيمودو.

أما روبين بوسبان فقال وهو لا يزال يتحسس الألم في أضلاعه:

ـ قبح الله وجهه، إن له قوة الجبابرة، وهو أحدب، ويعرف كيف يسير على قدميه وهو متعانق الساقين، وينظر إليك وهو أعور، وينصت إلى حديثك وهو أصم، ولكن بربكم، ماذا يفعل هذا الوحش بلسانه؟

فأجابت المرأة العجوز:

أجل، فهو يتكلم عندما يشاء، وقد أُصيب بالصمم لأنه يقرع أجراس الكاتدرائية، لكنه ليس أبكم.

فأجابها روبين بوسبان:

ـ فلا ينقصه سوى البكم ليصبح إحدى معجزات الطبيعة.

في هذا الوقت كان بعض الطلاب ومعهم رجال من الحاضرين قد انطلقوا ليبحثوا عن ثوب مزركش لأمير المغفلين... وعن محفّة...

وكانوا قد عادوا إلى القاعة، في هذه اللحظة، فألبسوا كازيمودو الثوب وطلبوا إليه برفق أن يجلس في المحفة...

فاستجاب لطلبهم وجلس بكل هدوء وسكينة وكبرياء، فتطوع لحمل المحفة إثنا عشر من الرجال الأشداء، فرفعوها على أكتافهم وساروا به...

عندئذ ارتسم على وجه كازيمودو مزيجاً من الاحتقار والتشفي، عندما وجد نفسه محمولاً على أيدي أولئك الرجال الأشداء وذوي القامات القوية المعتدلة الطول

لكنها وسيمة الوجوه.

ووسط تصفيق يصم الآذان، خرج موكب أمير المغفلين من القاعة الكبرى في دار العدالة، وبدأ طوافه في شوارع المدينة وميادينها...

ونسي الناس التمثيلية والممثلين والمؤلف...

وفرغت القاعة من الناس...

الفصل الخامس

من هي آزمرالدا؟

مما لا شك فيه أن الحريصين على فن التمثيل استمروا في تقديرهم لنضال جرانجوار والممثلين في ممارسة التمثيل وتمكنوا من الصمود في الميدان، رغم كل ما رافق هذه التمثيلية من عبث ولهو ومداخلات واضطرابات.

أما المؤلف فقد صمد بين الجمهور يصفق حيناً ويحث الممثلين حيناً آخر أو يحث المشاهدين على الاستماع في أغلب الأحيان... كما أنه لا يكف طوال الوقت عن الإصغاء إليهم بعناية وإهتمام متأثراً بكل كلمة وبكل قصيدة... فقد عزم على الثبات حتى النهاية...

وعندما أيقن أن مشروع كازيمودو وكوبنول والرعاع قد انتهى وهم يهمون بالخروج من القاعة، كبرت آماله وقال:

ـ الحمد لله، سوف نستريح من ضجيج هؤلاء الأوغاد.

إلا أن هؤلاء الأوغاد كانوا كل المشاهدين.

وعندما انصرفوا لم يبق في القاعة أحد اللهم إلا بعض العجائز والغلمان. هؤلاء كانوا قد سئموا من الضجيج وضجروا من الانتظار، فتعبوا. لذلك تهالكوا على الأرض...

فقال جرنجوار لنفسه:

ـ لا بد من أن هؤلاء يشكلون نخبة المشاهدين، وسنرى كيف سيصفقون ويهتفون للرواية ومؤلفها... وممثليها...

إنه فعلاً متفائل أكثر من اللزوم.

في هذه اللحظة كان الممثلون قد بلغوا مشهداً في الرواية، يتعين فيه أن تعزف الموسيقى...

فجمد جرنجوار في مكانه وأرهف أُذنيه...

انتظر قليلاً، ولم يسمع الموسيقى... ما الأمر؟

تبين له فيما بعد أن العازفين قد انطلقوا مع موكب أمير المغفلين ظناً منهم أن التمثيلية أوقفت ولن يكتمل تمثيلها...

فأدرك جرنجوار ذلك... ولم ييأس.

فاقترب من الممثلين بكل هدوء وقال لهم:

ـ تجاوزا هذا المشهد واستمروا... تابعوا.

ثم اقترب من بعض المشاهدين... ناصتاً لعله يسمع كلمة ثناء، أو كلمة إطراء، أو كلمة تشجيع، لكنه سمع أحد الرجال يحدث زميلاً له قائلاً:

ـ أتعرف أين يوجد قصر المركيز دي تيمور الذي شنق في الأسبوع الماضي؟

فأجابه زميله:

ـ أجل، أعرفه حق المعرفة.

يقال أنه معروض للإيجار بستة جنيهات في العام!

فأجابه صديقه قائلاً:

ـ يا إلهي! كم ارتفعت أجور المنازل، فأصبحت أسعارها باهظة.

وبشكل مفاجىء، ألفت نظر الباقين في القاعة، صراخ أحد الغلمان قائلاً:

ـ آزمرالدا، آزمرالدا في الميدان!...

ووثب من مكانه بشكل سريع وانطلق إلى الخارج.

فأثرت كلماته وحركته هذه تأثير الساحر في الآخرين. فهرولوا إلى النوافذ، وأطلوا منها ليروا آزمرالدا!... وما لبثوا أن هرولوا إلى الخارج.

عندما فرغت القاعة من أي مشاهد...

وقف جرنجوار كالمصعوق...

عند ذلك دب اليأس والقنوط في نفسه... فانتهت كل معالم التفاؤل، فقال وهو يضرب يداً بيد وبيأس مرير:

ـ ما هذا؟ يا إلهي!... ما معنى آزمرالدا؟ لماذا هربوا كالملسوعين...

والتفت في القاعة وقال مع شعور بالانهزام:

ـ لم يبق في المكان سوى النوافذ؟

وسار نحو الباب وهو مطرق الرأس... لم يعد بإمكانه أن يفكِّر.

كان يشبه القبطان الباسل الذي يلازم سفينته التي تغرق وحتى النهاية... ويأبى إلا أن يكون آخر الناجين...



الراقصة الساحرة

في شهر أيار، يهبط الظلام باكراً كالمعتاد.

عندما خرج جرنجوار أخيراً من دار العدالة، كانت الشمس قد غابت وراء الأفق، وبدأ الليل يرخي سدوله...

فرحب جرنجوار بالظلام... لأنه يتناسب مع أحاسيسه المظلمة...

فقد كان يتمنى اللجوء إلى مكان منفرد يخلو فيه مع نفسه علَّه يلتمس من الفلسفة بلسماً لجراحه المؤلمة.

في الحقيقة كانت الفلسفة ملجأه الوحيد في تلك الليلة، لأنه لم يكن يعرف إلى أين يذهب، ولا كيف سيمضي تلك الليلة؟

فقد كان من المستحيل عليه، بعد هذا الفشل بسقوط روايته، أن يعود إلى الغرفة التي يقطنها في شارع جرنييه...

كانت آماله كبيرة بنجاح روايته، وبالتالي كان يأمل بالحصول على الأجر الذي وعده به مدير البوليس. في حال أُعجب الكاردينال وضيوفه بهذه الرواية وبتمثيلها...

وكان يحلم بتسديد ديونه المتراكمة من أكثر من ستة أشهر وبنوع خاص دفع ما تراكم عليه من أجر الغرفة في أشهر السنة السابقة!...

إلا أنه وجد نفسه الآن عاجزاً عن سداد دينه، والذي تربو قيمته على أضعاف

ثمن كل ما يملك.

وهل يملك بعد غير قميصه وثوبه وحذائه الممزق.

فسار في شوارع باريس على غير هدى... وساقته قدماه إلى ميدان لاجريف قرب كاتدرائية نوتردام... فرأى عن بعد وهج نيران تتلظى في وسط الميدان وقال لنفسه...

إن عروقي توشك أن تتجمد من شدة البرد... فما علي على الأقل سوى أن أصطلي بهذه النيران...

فاقتنع بالفكرة... وأسرع الخطى باتجاه النيران...

إلا أنه فور وصوله رأى جداراً من الآدميين يحول بينه وبين النار المشتعلة.

فقال محدثاً نفسه، لأنه كان كسائر الشعراء الحقيقيين الذين يناجون أنفسهم حين لا يجدون من يتحدث إليهم، أو يتحدثون إليه.

- قبح الله وجهكم يا أهل باريس، أتمنعوني حتى من الاصطلاء في وهج هذه النيران؟

واستدار لينصرف عن الجمهور.

إلا أنه لاحظ أن الناس قد تجمعوا في شبه دائرة، ولعلهم ينظرون بكل حواسهم إلى شيء ما...

وتأمل بوجههم فرأى عليها علامات الإعجاب والافتتان.

فدفعته حشريته كي يتعرف إلى مصدر هذا الإعجاب، فبدَّل رأيه عن الذهاب وحاول أن يشق لنفسه طريقاً بين الناس حتى يصل إلى المقدمة.

وهناك أدرك أن التماس الدفء ليس هو العامل الأول في جمع الحشد من الناس، بل أن هناك شيئاً آخر يجتذبهم بقوة أشد من قوة جذب الضوء للفراشة...

فقد شاهد في وسط الدائرة الآدمية فسحة تفصل الناس عن النار وفي وسطها فتاة ترقص وتتلوى مع التواءات ألسنة النار المتصاعدة.

وتأمل الراقصة فلم يدرك بادىء ذي بدء هل هي بشر مثله... أو أنها ملاك هبط من السماء...

فقد كانت أجمل مخلوقة رآها بعيني رأسه... بل إنها أجمل من أية مخلوقة رآها بعين الخيال وهو يحلق في سماء الشعر وخيالاته وأوهامه...

إنها فتاة في مقتبل العمر، متوسطة القامة، رشيقة الجسم سمراء البشرة، صغيرة القدمين، تدور حول نفسها وترقص بخفة الريح، فوق سجاد بسطت على أرض الشارع بشكل عشوائي.

تستقر جميع العيون على هذه الراقصة الساحرة، وهي ترقص على صوت الدف وتصول وتجول في ميدانها الصغير، وثوبها الرقيق ينتشر وفقاً لحركات جسمها والدفء يشق الهواء بخفة فوق رأسها، وعيناها السوداوان الساحرتان تتألقان وترسلان شعاعاً من لهب، على ضوء النيران التي تتلظى على قارعة الطريق...

غمغم جرنجوار بينه وبين نفسه قائلاً:

- إنها بوهيمية (غجرية) بدون شك.

توقفت الفتاة عن الرقص فجأة، ثم تناولت برشاقة سيفاً من الأرض، ووضعت سنه على وجهها، وحركت رأسها بطريقة خاصة، وجعلت السيف يدور حول نفسه بسرعة فائقة دون أن يهبط أرضاً أو يفقد توازنه...

بين الوجوه العديدة التي أضاءها وهج النيران في تلك اللحظة، ظهر وجه تنم تقاطيعه عن شدة اهتمام صاحبه بالراقصة... فمن تراه يكون؟

إنه وجه رجل متجهم السحنة، صارم التقاطيع، غائر العينين، يناهز الخامسة والثلاثين من عمره. رغم أنه يبدو في عز شبابه وفتوته، ونظراته لا تزال تنم عن حيوية،

فإنه كان غائر الصدغين مجعد الجبين... وقد تسرَّب الشيب إلى البقية الباقية من الشعر في رأسه الأصلع.

لكن جرنجوار لم يتمكن من رؤية ثياب الرجل، وقد حجبتهما أجسام المشاهدين.

إلا أنه لاحظ أن الرجل ينظر إلى الفتاة بعينين نهمتين، وقد علت وجهه مسحة من الكآبة، حين كانت وجوه الآخرين تنم عن الفرح والارتياح والبهجة.

وقد كانت تتكرر على شفتي الرجل آهة مع ابتسامة، لكن الابتسامة كانت دائماً أشد كآبة وأدل على الأسى من الآهة.

بعد مرور فترة وجيزة توقفت الفتاة عن الرقص وهي تلهث من التعب...

فصفق لها المشاهدون بحماسة شديدة مع إظهار مشاعر السرور والفرح.

فقالت البوهيمية، وهي لا تزال تلهث من شدة التعب:

ـ «غالي»

ـ يبدو أنها نادت أحداً...

فتقدمت عنزة صغيرة جميلة، مذهبة القرنين والحوافر... لم يرها جرنجوار قبل ذلك، رغم أنها كانت بالقرب من الراقصة، وذلك لكثرة إعجابه بالراقصة: جمالها ورقصها...

ثم تابعت الفتاة:

ـ لقد جاء دورك الآن يا «غالي»، فاستعدي!...

ثم جلست بجانب العنزة برشاقة وخفة... ورفعت الدف في يدها وقالت:

ـ في أي شهر من السنة نحن يا «غالي»؟

فما كان من العنزة إلا أن رفعت أحد حافريها الأماميين، ودقت به الدف دقة واحدة...

فترددت صيحات الإعجاب من كل ناحية.

فقد كان ذلك الشهر فعلاً أول أشهر السنة.

ثم قالت الراقصة:

ـ «غالي»، في أي يوم من الشهر نحن الآن؟

فما كان من العنزة إلا أن رفعت حافرها المذهب مرة أُخرى، وقرعت الدف ست مرات.

ثم تابعت الراقصة اسئلتها قائلة:

ـ كم الساعة الآن يا غالي؟

فقرعت العنزة الدف سبع مرات.

جاء الجوب مناسباً مع دقات ساعة إحدى الكنائس القريبة...

فذهل المشاهدون.

وقال أحدهم:

ـ إنه سحر أثيم!...

فقد كان المتكلم، الرجل الأصلع الذي كان مأخوذاً بالراقصة بكل جوارحه.

إرتجفت الفتاة من كلامه وأشاحت بوجهها.

لكن تصفيق المشاهدين، وهتافاتهم، ومظاهر إعجابهم... كل ذلك أزال الأثر السيء الذي تركته في نفسها كلمات ذلك الرجل الأصلع الغريب...

التفتت البوهيمية إلى عنزتها... وقالت:

ـ «غالي»... تعالى نرى كيف يسير الكابتن جيشار قائد الحرس الملكي مع رجاله الأشاوس!...

نهضت العنزة على قائمتيها الخلفيتين... ثم سارت بمشية تبدو فيها كل مظاهر العظمة والكبرياء...

فضحك المشاهدون بقوة... ثم صفقوا طويلاً.

ثم تشجعت الراقصة بإعجاب الجمهور وتصفيقه وقالت:

ـ «غالي» أرينا كيف يتحدث السيد جاك شارمول النائب العمومي لدى المحكمة الاكليريكية؟

فجلست العنزة على مؤخرتها بشكل مسطح، ثم أخذت تثغر وتهز حافريها الأماميين بحدة.

ولو كان باستطاع العنزة أن تتكلم قليلاً بالفرنسية المكسرة أو اللاتينية الرديئة لاعتقد المشاهدون أنهم أمام النائب العام.

فضحك المشاهدون، وصفقوا كما لم يصفقوا من قبل.

فقال الرجل الأصلع:

ـ هذا سحر أثيم... إنه الكفر بعينه!...

فسمعته الفتاة، لكنها قلبت شفتيها باحتقار...

فدارت على عقبيها...

وأخذت تتلقى تبرعات المشاهدين تجمعها في الدف.

ولم يمض وقت قصير... حتى تحوَّل الدف إلى معرض لمختلف قطع النقود بين فضية ونحاسية...

وعندما وصلت الراقصة إلى جرنجوار...

دسّ الفتى يده في جيبه بسرعة...

لكنه للأسف لم يجد فيه شيئاً، فغمغم بهدوء:

ـ يا للشيطان؟

ثم أكمل البحث في جيوبه، في حين تنظر الفتاة إليه بعينيها الواسعتين الساحرتين والدف في يدها الممدودة.

فأحس جرنجوار بالعرق يتصبب على جبينه...

فلو وجد أمريكا كلها في جيبه، في تلك اللحظة، لتبرع بها للفتاة، إلا أن أمريكا لم تكن في جيبه... ولم يكن معه ولا فلس واحد...

فالمسكينة لم تكن قد اكتشفت بعد... أمر جرنجوار

إلا أن الظروف شاءت لشاعرنا المفلس، أن ينجو من هذا الموقف المخجل... فقد صادف في تلك اللحظة أن سمع القوم صوتاً ثاقباً كنحيب البوم يصيح قائلاً:

ـ ألم تنصرفِ بعد أيتها الغجرية الأثيمة؟

فأدارت الراقصة البوهيمية رأسها الجميل بذعر لترى مصدر الصوت.

فوجدت أنه صدر من نافذة قريبة، في بيت قديم يعرف باسم برج رولان...

والتفت المشاهدون أيضاً، فصاح أحدهم:

ـ إنها الأخت غيدول الناسكة.

وقال آخر:

ـ ماذا تريد هذه العجوز التعسة؟

فانتهز جرنجوار هذه الفرصة...

فتسلل بين الجموع وتوارى عن أنظار المشاهدين.

أما الراقصة:

فقد أكملت طوافها على المتفرجين، ووضعت ما تجمع لها من النقود في جيبها، وشكرت الحاضرين بأغنية بديعة وبصوت ساحر.

فقد كان صوتها كجمالها، وكرقصها، أمراً ساحراً يتعذر وضعه في كلمات، ولكي تؤمن بسحره أو تتعرف عليه ما لك سوى أن تسمعه...

أما جرنجوار فقد أصغى إليها بكل جوارحه، رغم أنه لم يفهم كلمة واحدة من تلك الأغنية الأسبانية.

إلا أن الصوت الرقيق الحنون الذي حمله النسيم العليل إلى اذنيه وهو مختبىء بين المتفرجين جعل الدموع تترقرق في عينيه...

فسمع صوتها... وأصغى إليها... ونسي كل شيء...

نسي أنه جائع، نسي بأنه بغير مأوى...

وأصبح المشاهدون في حالة ذهول، لأن صوت البوهيمية قد سحرهم أكثر مما سحرهم رقصها من قبل!...

ووسط هذا الذهول الجماعي بسحر صوت الغجرية، صاحت الأخت غيدول مرة أخرى بصوتها المزعج، والمناقض لصوت الفتاة...

ـ ألا تتوقفين عن هذا العواء أيتها الغجرية السارقة؟

فصاح أحد المشاهدين قائلاً:

ـ لعنة الله عليك يا بومة الجحيم!...

فوضع جرنجوار أصابعه في أذنيه كي لا يسمع سوى حلمه اللذيذ وكي لا يعكر صفوة هذا الضجيج النشاذ.

وما كاد يضع أصابعه في أُذنيه حتى سمع ضجة أكبر بكثير... وهتافات يليها تصفيق حاد...

والتفت إلى مصدر ذلك، فرأى في الناحية الأخرى من الميدان موكباً كبيراً تحف به المشاعل من كل الجهات.

إنه موكب أمير المغفلين.

فقد قام بجولته في شوارع العاصمة، فانضمت إليه في الطريق طقمة من الرعاع، والمتشردين، واللصوص، وسواهم من حثالة الشعب الباريسي.

كان يسير في مقدمة الموكب جماعة من الموسيقيين، عرف منهم جرنجوار أولئك الذين تخلوا عنه وعن روايته وممثليها في القاعة الكبرى في دار العدالة.

في وسط الموكب كان كازيمودو في محفته العظيمة المحمولة على الأكتاف والسواعد.

إنه لمن المستحيل تصوير علامات الرضى والخيلاء التي كانت قد ارتسمت على وجه الدميم وهو يجتاز ميدان لاجريف، كي يتم نقلها للقارىء.

فقد كانت تلك المرة الأولى التي يشعر فيها كازيمودو بأنه شخصية لها قيمتها، ولها أهميتها...

فهو، خلال حياته بكاملها، لم يجد سوى الاحتقار ولم يقابل بغير الاشمئزاز والاستنكار...

رغم كل صممه، كان يشعر بلذة عظيمة، ولم يرَ يوماً من الأيام تصفق له الأيدي بهذا الشكل...

ولم يرَ الأنظار تحترمه على هذا النحو...

ومع كل ذلك فأنه كان يحس بالكراهية الشديدة لأولئك الذين يحتفلون به ويهتفون له...

فهو يدرك أنهم يكرهونه.

لم يكن بإمكاننا أن نؤكد أن هذا المخلوق العجيب إنسان يعي طبيعة الشعور الذي يعتمل في صدره للناس. أو الشعور الذي يعتمل في صدور الناس له.

إذ أن من المألوف، ألاَّ تزود الطبيعة الأجسام المشوهة هكذا بعقول كاملة الإدراك والأحاسيس...

أمرٌ واحد لا بد من تأكيده، هو أن وجه هذا المخلوق الذي يعتبر غلطة من أغلاط الطبيعة... إلا أنه كان يشعر فعلاً بهذه الهالة من السرور والسعادة... وهو يشعر بكل شيء.

فما كاد الموكب يمر حول الحلقة التي تضم في داخلها الراقصة البوهيمية حتى انتابت الناس دهشة فجمدوا في أماكنهم... فرأوا شخصاً يشق طريقه بشكل مفاجىء ويصل إلى المحفة التي تربع عليها كازيمودو ويختطف الصليب المذهب الذي يحمله أمير المغفلين في يده.

كان ذلك الشخص هو بعينه الأصلع الذي أزعج الراقصة عندما اتهمها بالسحر والكفر...

في ذلك الوقت استطاع جرنجوار أن يرى ثيابه الكهنوتية وأن يعرفه...

فغمغم جرنجوار بهدوء قائلاً:

- يا إلهي... إنه الأب كلودفرولو أسقف نوتردام... فكيف غابت عني معرفته؟ ولكن ما علاقته بأمير المغفلين هذا؟ مما لا شك فيه أن هذا الوحش الأعور سوف يلتهمه التهاماً.

وعندما وثب كازيمودو من المحفة إلى الأرض، صرخت النساء وحوَّلن وجوههن كي لا يرونه.

ووثب كازيمودو على القس، ونظر إليه مطولاً ثم خرّ ساجداً على ركبتيه.

فمد القس يده إلى الثوب المزركش الذي يرتديه كازيمودو ومزقه بدون شفقة ولا رحمة...

واستمر الأحدب جاثياً على الأرض، مطرقاً برأسه، لا يأتي بحركة، ولا ينطق بحرف.

ودار بينهما حديث عجيب غريب، دون أن يفتح أحدهما فمه.

فقد تحدثا بالحركات والإشارات والنظرات، بينما القس كان واقفاً منتصب القامة، مرفوع الرأس، وتبدو عليه علامات الغضب والتهديد، في حين بقي كازيمودو راكعاً تحت قدميه، بمذلة وتواضع وعليه شعور التوسل.

هذا علماً أن الأحدب يستطيع، إذا أراد ذلك أن يحطم القس ويهشمه بخنصره فقط...

أخيراً، بعد كل هذه المواقف المتناقضة والمتباينة، ألقى القس بيده على كتف كازيمودو، وهزه بعنف، وأشار إليه بيده كي ينهض فأطاعه فوراً.

فقال جرنجوار في نفسه:

ـ مما لا شك فيه أن القس يدرك أن كازيمودو أصم...

حدث كل ذلك والناس ينظرون إليهما، وقد عقدت الدهشة ألسنتهم.

فسار الأب بخطئ ثابتة... فأفسح له الناس الطريق... وتبعه كازيمودو كالكلب الذليل...

فقال جرنجوار في نفسه:

كل ذلك عجيب!... لكنه عاد إلى نفسه فتساءل:

أين أجد طعاماً؟

وأين أمضي ليلتي؟...

الفصل السابع

إختطاف الفتاة...

قد يحتاج إنسان إلى الطعام أو يحتاج إلى مكان يرقد فيه، إنما مما يدعو إلى الأسف، أن يضطر الإنسان إلى الرقاد في فراشه، وهو جائع...

وأدعى من ذلك إلى الأسف ألا يجد فراشاً يرقد فيه وهو جائع.

هكذا كان حال جرنجوار، فهو لا يعرف أين يذهب، ولا كيف يقضي تلك الليلة؟ وأين؟

فكَّر في الموضوع كثيراً، وخطط... لكنه حزم رأيه إخيراً على أن يضرب في الأرض على غير هدىً وبدون هدف.

وما لبث أن خطر له أن يتعقب الراقصة البوهيمية ويتابع أثرها إلى حيث تريد أن تذهب.

عاد إلى مراقبتها، فوجدها تسير مع عنزتها في شارع «كوتلاري» فاتجه نحو هذا الشارع وهو يردد:

ـ أجل... لماذا لا أتبعها؟...

ثم عاد إلى نفسه وفكر بعين الفيلسوف فقال:

ـ إن أفضل تسلية للرجل الذي لا عمل له، هو أن يتعقب إحدى الحسناوات، ودون أن يجعلها تشعر بأنه يتعقبها...

هكذا سار جرنجوار في أثر البوهيمية وعنزتها.

ثم رأى الفتاة تسرع الخطى...

فحذا حذوها...

وانتقلت البوهيمية من شارع إلى شارع...

ومن زقاق إلى زقاق...

وجرنجوار لا عمل عنده، سوى متابعتها إنما على مسافة بعيدة عنها نوعاً ما.

وفي المساء حجبها الظلام عن عينيه، فاهتدى إلى خط مسارها عبر وقع حوافر العنزة على أرض الطريق...

ولما وصل إلى شارع «فرديليه»، أحسَّ بأن الفتاة قد شعرت بوجوده وراءها...

وذلك لأنها حوَّلت رأسها عدة مرات...

ونظرت إليه بقلق...

وعند مرورهما في بقعة مضيئة أمام حانوت أحد الجنازين، انتهزت هذه الفرصة لتقيِّمه بعينيها من قمة رأسه حتى أخمص قدميه، وعبَّرت عن رأيها فيه بأن قلبت شفتها السفلى.

لم يعط جرنجوار لهذه الحركة معنى إلا كونها دليلاً على الاحتقار والازدراء.

حزَّ ذلك في نفس جرنجوار، فأطرق رأسه، ولكنه تابع السير إنما ببطء كمن يحمي أحجار الشارع وذلك لضعف أمله بلقائها...

فأمضى بالإبطاء إلى أن سبقته الراقصة وابتعدت عنه مسافة طويلة...

فما لبثت أن غابت عن عينيه في أحد الشوارع الجانبية...

فما أن وصل جرنجوار إلى هذا الشارع حتى سمع صراخاً ثاقباً...

وكان الظلام فيه دامساً، وليس ثمة سوى بصيص ضئيل ينبعث من نور مصباح

صغير موجود أمام أحد المنازل...

فرغم ضآلة هذا الضوء، تمكن جرنجوار أن يتبين الراقصة البوهيمية وهي تقاوم ضد شخصين يحاولان خنق صيحاتها للقبض عليها...

وظهرت عليه العنزة أيضاً وقد انزعجت من هذا الهجوم الفجائي فراحت تهز قرنيها وتثغو بذعر غريب...

فصاح جرنجوار وهو يتقدم بجرأة وبسرعة...

- تشجعي، تشجعي... ها أنذا قادم لنجدتك...

عند ذلك تحوَّل إليه أحد الرجلين!

فرأى جرنجوار وجهه!

فعرفه!...

- إنه كازيمودو

فلم يتراجع جرنجوار...

إنما لم يتقدم خطوة واحدة!

بل جمد في مكانه.

ونظر إلى كازيمودو نظرة الخروف إلى الجزار

فانقض كازيمودو عليه...

وضربه لكمة قوية قذفت به على بعد خمسة أمتار، ووقع على أرض الشارع فاقد الرشد...

ثم عاد الأحدب الجبار إلى الفتاة، فحملها على ساعده، كمن يحمل خرقة...

وتبعه زميله بخطىً ثابتة وسريعة...

وقد تبعتها العنزة وهي تثغو ثغاء مؤلماً.

عند ذلك صرخت الراقصة البوهيمية بصوت مرتفع:

ـ النجدة... النجدة!

فصعدت صرخة في الظلام بصوت كقصف الرعد:

ـ قفا أيها الوغدان، أُتركا الفتاة؟

وسمع على أرض الشارع وقع حوافر جواد ينهب الأرض نهباً والخيال شاب قوي البنية...

وما لبث أن ظهر الجواد في ضوء المصباح

وإذا بالخيّال، ضابط من ضباط الشرطة، وقد جرَّ حسامه في يده...

فانقضَّ الضابط الشجاع على الرجلين بسرعة البرق، واختطف الفتاة من يد كازيمودو، وأردفها وراءه على الجواد.

وما لبث أن أفاق الأحدب من ذهوله ودهشته، وأسرع لمهاجمة الضابط كي يسترد الطريدة...

فوجد على الفور بينه وبين الضابط خمسة عشر فارساً من أتباع الضابط انحدروا على الأحدب وأحاطوا به من كل ناحية، وما لبثوا أن انقضوا عليه وغلبوه على أمره وشدوا وثاقه.

فأرغى الأحدب وأزبد...

ثم زأر وزمجر...

وراح يضرب بقدميه...

ويعض بأسنانه...

فلو كان الوقت نهاراً، وشاهد الجنود وجه الأحدب الذي زاده الغضب دمامة

وبشاعة، لراعهم منظره وولوا الأدبار، إلا أن الليل جرده من أقوى أسلحته، وهو دمامته...

إنتهز زميله فرصة النضال الذي قام به الأحدب والجنود، ففر هارباً...

واختفى في الظلام دون أن يعرفه أحد.

عندما وجدت البوهيمية أن الخطر زال عنها، اعتدلت برشاقتها على صهوة الجواد، فلمست كتف الضابط... وحوَّل نظره إليها.

فأيقن إنه أنجد فتاة رائعة الجمال، وعليها علامات الثقة بالنفس والقدرة على التحرك حتى على ظهر الخيل...

نظرت الفتاة إلى وجه الضابط طويلاً، وبإمعان، كأنما راقتها طلعته...

ثم سألت بصوت أعذب من صوتها العذب العادي:

ـ سيدي!... ما اسمك؟

رفع الضابط قامته بكبرياء وقال:

ـ أنا الكابتن فيبوس دي شاتوبير، في خدمتك أيتها العزيزة...

فتنهدت الفتاة وقالت:

ـ أشكرك يا سيدي.

في الوقت الذي كان الضابط ينظم شاربيه بفخر واعتزاز، نزلت الفتاة عن ظهر الجواد...

وما لبثت أن اختفت في الظلام بسرعة فائقة...



من مأزق إلى مأزق

عندما استفاق جرنجوار من إغمائه، وجد نفسه ممدوداً في الهواء الطلق...

حاول أن يتذكر ما حل به وكيف وصل إلى هنا، فاختلطت في ذهنه صورة الراقصة البوهيمية... ووجه كازيمودو، وحوافر العنزة.

أخيراً تذكر اللكمة التي أفقدته صوابه، وكل ما حصل من ملابسات أحاطت بها... ولم يكف عن التفكير والتذكر... وشعر ببرودة شديدة في ظهره...

فتساءل قائلاً:

ـ من أين جاءني هذا البرد؟

استفاق أكثر فأكثر ووجد نفسه ممدداً في حفرة مليئة بماء المطر.

فغمغم مردداً:

ـ تباً للأحدب اللعين!

فنهض من الحفرة بعد عذاب شديد... وسار في الظلام على غير هدى.

لم يفكر إلى أين يذهب، بل حصر كل اهتماماته بحل لغز اختطاف الراقصة.

إثر تفكيره المتواصل في كازيمودو، أوصله ذهنه إلى الأب كلود فرولو أسقف كاتدرائية نوتردام... وربط ذلك بموقفه العجيب من الأحدب في ميدان لاجريف.

عند ذلك تذكر أن كازيمودو كان برفقة أحدهم أي له شريك في اختطاف البوهيمية... تذكر كل ذلك... وحبس أنفاسه... وتساءل:

ـ هل يمكن إن يكون شريك كازيمودو هو الأب كلود فرولو؟

وراح يضرب أخماساً بأسداس. وأخذ يضع مئات الافتراضات والاحتمالات، إلى أن أحس بجسده بدأ يرتجف لشدة البرد... فعمد إلى تسريع خطاه التماساً للدفء.

وما لبث أن ضاعف سرعته، وراح يعدو على غير هدىً،

صدف أن لاح له في نهاية أحد الأزقة ضوء نار تشتعل.

فهتف بصيحة أشبه بصيحة أرخميدس عندما اكتشف قانونه قائلاً:

ـ وجدتها!... وجدتها!...

واقترب بسرعة من النار ملتمساً قربها الدفء، إلا أنه لاحظ في طريقه ظاهرة عجيبة.

فقد رأى أن الزقاق حافل بأشباح عجيبة تسعى كلها إلى النار الملتهبة.

يقال أنه ليس هناك ما يحبب الإنسان إلى المغامرات كالإفلاس، لذلك لم يتردد جرنجوار في استئناف السير ورغم وجود تلك الأشباح التي تحيط به... وتزحف أمامه ووراءه وعن يمينه وعن يساره...

فتضاعفت جرأته... وتقدم...

اقترب من أحد الأشباح وتبينه، فإذا هو رجل يزحف على ركبتيه.

فقال له الرجل الزاحف وبصوت مؤلم:

ـ أنا جائع، يا سيدي، أعطني سنتيماً من فضلك!

فأجابه بكل خشونة:

ـ إذهب إلى الشيطان، ودعني وشأني.

وما أن ابتعد بضع خطوات حتى سمع صوتاً يهتف قائلاً:

ـ سيدي، أعطني رغيفاً، فأنا لم أتناول طعاماً منذ أسبوع!

والتفت جرنجوار إلى المتكلم، فرأى أمامه شبحاً يتوكأ على عكاز، فأجابه قائلاً:

ـ أؤكد لك أنني بعت آخر قمصاني منذ أسبوعين.

لكنه استمر مستأنفاً السير...

إلا أنه لم تمضِ دقيقة واحدة... حتى وجد نفسه محاطاً بجيش من الشحاذين. هذا أعرج، وذاك أعمى وثالث كسيح، ورابع أعور... وخامس معصوب الساعدين... وسادس...

وقد أصبحوا جميعاً يستجدون بمختلف اللهجات... فضيقوا عليه الخناق... إلى أن اضطر أن يطلق ساقيه للريح...

وكانت دهشته عظيمة عندما رأى الكسيح والأعمى والأعرج... وظغمة من هؤلاء وأمثالهم يلاحقونه، ويركضون وراءه...

فدب الخوف في قلبه... خاصة وقد انتابه شعور بأنه قد أصبح بشكل فجائي سجيناً في غرفة مليئة بالأفاعي...

فكر في العودة من حيث أتى أي أنه ينكص على عقبيه، إلا أن هذا الخاطر جاء بعد فوات الأوان...

لقد أصبح محاطاً بأولئك الأوغاد فحالوا بينه وبين العودة، فأرغموه على متابعة السير في الاتجاه نفسه.

تابع المسير بالاتجاه نفسه، فانتهى جرنجوار إلى حيث كانت النار تلتهب...

فرأى أمامه باب كبير مفتوح على مصراعيه...

فتردد بالدخول لحظة...

ثم جمع أطراف عزيمته الخائرة ودخل...

هناك وجد أمامه مكاناً فسيحاً، يسبح في ضوء عشرات المصابيح...

وقف برهة، ونظر حوله!

فرأى الأعمى يحملق في وجهه... ورأى ذا الساعدين المعصوبين يحرك ساعديه، والكسيح ينهض على قدميه...

فسأل بذعر شديد:

ـ أين أنا؟

فأجابه الأعمى:

ـ أنت في دار العجائب.

فقال الشاعر التعس:

ـ فعلاً إنها دار العجائب، وهل أعجب من أن يبصر الأعمى... ويمشي الكسيح...

فقهقه الأوغاد ضاحكين!

أجال جرنجوار البصر حوله.

فأيقن أن الحظ السيء قد ساقه إلى دار العجائب هذه... الدار التي لم يدخلها قط إنسان أمين...

فكر قليلاً ثم تابع قوله بينه وبين نفسه:

حتماً لم يجسر أحد من رجال الشرطة الدخول إلى هنا، دون أن يفقد حياته، أو يصاب بعاهة مستديمة...

فهل سأصاب أنا كذلك؟...

وهل سأصبح مثل هؤلاء التعساء؟

فردد بكل خيبة أمل وخوف:

دار العجائب؟

إنها مأوى القتلة واللصوص والمتشردين والغجر...

لا شك في أنه الجحيم الذي يلفظ في كل صباح ويستقبل في كل مساء مئات من المجرمين التعساء وحثالة البشر...

أدركت الآن أن هذه الدار هي المحل الذي تم اختياره لإيواء أولئك الذين لا عمل لهم سوى أن يكونوا وصمة عار في جبين باريس المتمدنة!...

أجل أدركت أنها المأوى الذي يلجأ إليه الرعاع، وفيها يصطنعون جروحهم وعاهاتهم الزائفة، ومنها يخرجون للاستجداء نهاراً، والسطو على المنازل وعلى المارة ليلاً، وإليها يحمل هذا الجيش المختلط، من كل الأجناس والأديان، غنائمه وأسلابه؟

وأخيراً فيها يعيشون، ويتزوجون ويتكاثرون...

هكذا كانت دار العجائب في ذلك العصر، أشبه بمدينة همجية مستقلة، داخل باريس الوادعة المتمدنة.

* * *

إثر كل هذه الاستنتاجات التي توصل إليها جرنجوار الفيلسوف، جمد في مكانه، وقد امتلأت أذناه بضجيج الرجال وضحك النساء وبكاء الأطفال... ورأى فيهم جميعاً مجتمعاً فاسداً من رأسه حتى أخمص قدميه.

فخيل إليه وكأنه دخل إلى عالم جديد لا عهد له بمثله، عالم مليء بالحشرات والزواحف... عالم مكون من حطام الإنسانية التي تسعى نحو الرقي والأفضل...

سعى إلى السيطرة على عواطفه وانفعالاته، وجمع شتات أفكاره، إلا أن محاولاته المتكررة ذهبت سدىً.

فغمغم قائلاً:

ـ يا إلهي! هل أنا على قيد الحياة؟

كانت هذه الجملة أفضل ما تمكن أن يعبر به عن حيرته وذهوله.

عند ذلك، قال أحد الأوغاد الذين تعقبوه وأحاطوا به:

ـ فلنذهب به إلى الملك؟

فصاح الآخرون كلهم:

ـ إلى الملك؟ إلى الملك؟

فدفعوه أمامهم بين تلال من الأحجار والقاذورات، وصفوف من البراميل الفارغة والأواني المحطمة حيث تنتشر روائح كريهة.

ثم اجتازوا به فناء مليئاً بالأوحال...

إلى أن انتهوا إلى قاعة مترامية الأطراف، مخفضة السقف... تنبعث منها رائحة نفاذة...

إنها رائحة مزيج من العفونة ورائحة الخمر، والدخان...

فوجد جرنجوار نفسه في مكان عجيب غريب... في مكان لا يساعد على التحليق في سماء الخيال... والشعر...

فقد رأى أمامه ناراً هائلة تشتعل في موقد حجري عظيم... وقد اصطف حولها بدون انتظام جيش من الخلائق الذين لا يرى لهم الإنسان مثيلاً إلا في دار العجائب نفسها.

جلس بعضهم على الأرض، وتبوأ البعض الآخر جوانب الموائد أو قمم البراميل... الخ.

وقد انصرف آخرون إلى عملهم...

فهدا يصطنع جرحاً عميقاً في ساقه، وذاك يزيل الأربطة عن ساعده التي كان يدّعي أنها مصابة...

وثالث يتلقى درساً في أصول فن الصرع، ورابع يتعلم كيف يرسل الزبد من شدقيه...

وهنا امرأة تعانق رجلاً... وهناك ثلاث نساء يتنازعن طفلاً سرقنه في وضح النهار...

ومن جميع النواحي تتصاعد الضحكات والأغاني المبتذلة وأحياناً الصرخات...

تلك هي المشاهد التي رآها جرنجوار.

مما لا شك فيه أن القارىء يرى ذلك ضرباً من الخيال... إلا أنها كانت حقائق في القرن الخامس عشر... العصور التي عرفت تحت اسم «القرون الوسطى».

* * *

أوصل الأوغاد جرنجوار إلى حيث يوجد أضخم برميل في المكان.

كان هذا البرميل هو العرش!...

وعليه كان يجلس الملك

امتثل جرنجوار بين يدي الملك!...

فلم يجسر على أن يرفع عينيه نحوه من شدة الخوف. وحتى لم يجرؤ على التنفس في هذه اللحظات.

فقال الملك:

ـ من هو هذا الوغد؟

فارتجف جرنجوار جزعاً، لكن صوت الملك ذكره مع كل تهديداته ووعيده بصوت آخر سمعه في صباح ذلك اليوم، حين تلقت روايته التمثيلية الطعنة الأولى أثناء التمثيل.

فرفع عينيه ونظر إلى الملك...

فعرف فيه كلوبان ترولفو...

وقد كان كلوبان يرتدي الثوب نفسه الذي ظهر به في القاعة الكبرى في دار العدالة، وكل ما هنالك من تغيير، فقد أزال الأربطة التي كان يعصب بها جرحه الزائف.

لأن هذه التشويهات كانت السبيل الأساسي لإثارة شفقة الناس عليهم لتزويدهم بمختلف أنواع الصدقات.

عندما عرف جرنجوار الملك، تنفس الصعداء، وزالت عنه بعض مخاوفه وانتعشت بعض آماله!...

فقال بلسان متلعثم:

ـ سيدي... مولاي... يا صاحب الجلالة... قل لي بأي اسم... بأي اسم يجب أن أدعوك.

وبدت عليه علامات الحيرة والتردد، وصمت.

فأجابه كلوبان:

ـ قل لي: يا صاحب الجلالة، أو أيها الزميل... أدعني بما شئت من الأسماء، المهم يجب أن تسرع، بماذا تدافع عن نفسك...

فقال جرنجوار لنفسه:

ـ بماذا أدافع عن نفسي؟ هذا الكلام لا يجلب السرور؟

واستطرد بصوت مرتفع وبلسان متلعثم:

ـ أنا الذي،... أنا الذي كنت في صباح هذا اليوم...

فقاطعه كلوبان بصوت مرتفع:

ـ بماذا تهذي يا صاح؟ اذكر اسمك فقط، ولا تنطق بكلمة أخرى...

ألا تدري بحضرة من أنت؟ إنك في حضرة كلوبان ترولفو... ملك ملوك بوهيميا، وامبراطور دار العجائب... والآن نحن قضاتك هنا؟

لقد تخطيت حدودنا، ودخلت أرضنا، وخرقت حرمة المدينة، دون أن تكون واحداً منا...

وهذه جريمة يجب أن تعاقب عليها، ما لم تكن لصاً، أو مجرماً، أو سائلاً أو متشرداً... فهل أنت واحد من هؤلاء؟

فتنهد جرنجوار ثم قال:

ـ أنا متأسف، ليس لي الشرف بأن أكون واحداً من هؤلاء، إني مؤلف رواية... الرواية التي...

فصاح كلوبان:

ـ كفى... كفى.. لا بد من شنقك... كما تعاملون رعايانا أيها المواطنون الشرفاء... كذلك يجب أن نعاملك، والقانون الذي اشترعتموه للمتشردين سينفذه المتشردون فيكم...

صمت قليلاً ثم تابع:

ـ فإذا كان في هذا القانون شيء من القساوة فالذنب ذنبكم.

تعال أيها الصديق، وزع أثمالك البالية على هؤلاء الزملاء، لأنني سأشنقك حالاً وذلك كي أُدخل السرور على نفوس شعبنا...

في حال أردت أن تبتهل إلى الله كي يتقبل روحك في جحيمه، فافعل ذلك بأسرع وقت ممكن...

من أجل ذلك أمهلك أربع دقائق لتصفية شؤونك الدنيوية، وأداء واجباتك الدينية؟

يا له من إنذار مخيف!...

ومن العجب أنه أثر في نفس شاعرنا تأثيراً عكسياً، فأعطاه القوة المندفعة

فرفع رأسه بحدة واندفاع...

ثم قال بكل برودة:

مما لا شك فيه أنك لا تعني ما تقول أيها الملك العظيم، إن اسمي بيار جرنجوار، وصناعتي شاعر، فأنا مؤلف الرواية التي تم تمثيلها اليوم في القاعة الكبرى في دار العدالة...

فصاح به كلوبان:

ـ آه... لقد ذهبت اليوم إلى دار العدالة... ولكن هل تعتقد أن ما جلبته علينا من السآمة والملل في هذا الصباح، سيمنعنا من شنقك في هذا المساء؟

فاحتار جرنجوار في أمره!...

لكنه قرّر أن يقوم بمحاولة أخيرة.

فقال:

ـ لماذا لا يعتبر الشعراء من طبقة المتشردين، فقد كان هوميروس سائلاً، وكان أوزيب لصاً...

ـ لا... لا... أظن أنك تحاول أن تخدعنا بهذه الثرثرة، فتأهب للشنق، فذلك هو معبرك المحتوم!...

فانعصر قلب جرنجوار وهتف:

ـ عفواً يامولاي، لا أظن أنك ستقضي في أمري دون أن...

ولم يتمكن من إتمام عبارته.

إذ أشار كلوبان بيده إشارة خاصة... فتقدم ثلاثة من الرجال الأشداء وأحاطوا بالشاعر التعس..

فقال كلوبان:

ـ في الواقع، لا أرى ما يمنعنا من شنقك، رغم نفورك من المشنقة، وهذا أمر طبيعي في الشرفاء أمثالك...

توقف قليلاً ثم أكمل قائلاً:

ـ نحن لا نبغي بك شراً، إذ ما تزال أمامك وسيلة للنجاة، فهل تريد أن تنضم إلينا وتصبح واحداً منا!...

لم يجد جرنجوار منفذاً للخلاص، فتعلق بأهداب هذا الاقتراح، إذ وجد فيه السبيل الأوحد إلى النجاة...

فصاح قائلاً:

ـ طبعاً، طبعاً، ليس أحب إلي من أصبح واحداً منكم!...

ـ أتوافق أن تصبح متشرداً؟

ـ أجل، أوافق بكل قوتي...

ـ إنما... يجب ألاَّ يغرب عن بالك، أن ذلك لن يعفيك من الشنق؟

ـ يا للشيطان!...

هوِّن عليك، كل ما هنالك لن تشنق فوراً، بل ستشنق فيما بعد على أيدي رجال الشرطة، وعلى نفقة الحكومة، وفي ذلك عزاء لك بدون شك!...

فهتف جرنجوار قائلاً:

ـ طبعاً، طبعاً، لقد فهمت ماذا تعني!...

- وهناك امتيازات أُخرى سوف تتمتع بها لأنك أصبحت واحداً من رعايانا، فأنت لن تدفع بعد الآن شيئاً من ضرائب الكنس والرش، والحراسة، والإِضاءة... وغير ذلك من الالتزامات التي تثقل كواهل الباريسيين الأمناء...

فقال جرنجوار:

- إنني أرحب بالانضمام إليكم، وأرحب بحصولي على هذه الامتيازات!...

فقلب كلوبان شفته وقال:

- هذا الترحيب وحده لا يكفي، بل عليك أن تدلل على كفاءتك وقدرتك على عمل شيء... وسنرى الآن مبلغ استعدادك لمهنة النشل...

- أنا رهن إشارتك.

فأومأ كلوبان بيده...

فما كان من أحد الرجال أن أسرع وجاء بقطعتين من الخشب رشق أحداهما في الأرض ورشق الأخرى على بعد ثلاثة أمتار... وشد بينهما حبلاً تتدلى منه بضعة نواقيس صغيرة... ثم جاء بدمية عبارة عن رجل يرتدي ثوباً ومعطفاً، وشد الدمية إلى الحبل الذي يحمل النواقيس.

راقب جرنجوار كل ذلك، وهو لا يدري ماذا يراد به... إلا أنه رأى مئات العيون تنظر إليه، ولا تخلو من بريق ولهجات مقيتة، فتوقع شراً. فخفق قلبه بسرعة...

ثم أقبل أخيراً أحد الرجال بمقعد خشبي كانت له في وقت ما أربع قوائم، ولكنه فقد اثنتين منها.

فوضع الرجل هذا المقعد المهشم على الأرض، وقال كلوبان محدثاً جرنجوار:

- انهض، وقف فوق هذا المقعد!

أطاع جرنجوار كلوبان، إلا أن المقعد اهتز تحت قدميه بعنف وأوشك أن يفقده توازنه.

فقال كلوبان:

- أصغ إلي أيها الصديق... عليك الآن أن تنهض على أطراف أصابعك، وتنتشل قطعة من النقود الموجودة في جيب هذه الدمية، فإن تمكنت من فعل ذلك دون أن تهتز الدمية وتدق الأجراس المتدلية من الحبل، عند ذلك تصبح واحداً منا...

فقال جرنجوار على الفور وبحماس.

- وفي حال اهتزت الدمية ودقت الأجراس رغماً عني؟

فأجابه كلوبان ببساطة:

- في حال حدث ذلك كان جزاؤك الشنق.

فصاح جرنجوار. وهو لا يكاد يصدق ما سمع فأجاب:

- لا شك أنك تهذي.

فقطب كلوبان حاجبيه وصاح:

- قلت لك أنه عليك انتشال قطعة النقود دون أن تحرك الأجراس... فهل فهمت؟

صمت قليلاً ثم تابع:

أجل... أجل... وإذا فشلت كان جزاؤك الشنق.

- أجل... فهمت

- وإذا نجحت أصبحت واحداً منا، وأمرت أن تتلقى عدة لكمات يومياً لمدة أسبوع

فصاح جرنجوار

- رباه!.. أليس هناك سبيل وسط بين الفشل والنجاح؟ إذا فشلت شنقت. وإذا نجحت تلقيت اللكمات... فماذا أستطيع أن أفعل غير أن أنجح أو أفشل؟

- سوف تتلقى اللكمات وهذا لمصلحتك، أي لكي نروضك على عملك الجديد...

إنني أشكر لك هذا العطف وهذا الاحترام.

فقال كلوبان:

- والآن إلى العمل، ولا تنسى في حال سمعت رنين أحد الأجراس، وضعت عنقك في هذا الحبل المتدلي هناك...

فصفق الأوغاد للملك إعجاباً وسروراً، والتفوا حول الشاعر الشقي، وهو يرتجف فوق مقعده...

اقترب جرنجوار ومد يده إلى الدمية، وهو يقول في نفسه:

- يا إلهي! أهذا معقول أن تتوقف حياتي على حركة أحد هذه الأجراس؟

فتراءى له خاطر...

فهب وقال بصوت مرتفع:

- وإذا هبت الريح فحركت الأجراس!...

فأجابه كلوبان بدون تردد:

- عندها يكون مصيرك الشنق.

هكذا فإن شاعرنا لم يجد مفراً من الدخول في التجربة...

فأقبل على العمل بعزيمة... ومد يده إلى ثوب الدمية... وعندما حاول انتشال قطعة النقود... اهتز المقعد تحت قدميه...

فأخذ يضرب الهواء بساعديه ليحافظ على توازنه...

فضحك الأوغاد...

ثم اغرقوا في الضحك أكثر فأكثر

فأعاد جرنجوار الكرة...

فاهتز المقعد مرة أخرى.

فحاول الشاعر الاحتفاظ بتوازنه، فتعلق بالدمية، فدقت الأجراس كلها بصوت دوَّى في أذنيه كأنه قصد الرعد.

رغم ذلك لم يتمكن من حفظ توازنه، فسقط على الأرض، وتصاعد ضجيج الأشرار عالياً...

فصاح كلوبان:

ـ سيقوا هذا الشقي إلى حبل المشنقة في التو واللحظة.

خيل إلى جرنجوار، وبعد ذلك على أنه حلم رديء... فقد أحس في نفسه أنه محمولاً على عشرات السواعد. وشعر بالمقعد المحطم تحت قدميه... وبالحبل تحت عنقه، وسمع صوت ملك البوهيميين (الغجر) وهو يصرخ بأحد أعوانه:

ـ استعدوا... متى صفقت بيدي، اجذبوا المقعد من تحت قدميه.

وكانت لحظة رهيبة على جرنجوار وهو ينتظر تلك الإشارة البغيضة، فأغمض عينيه واستعد للموت.

مرَّت دقيقة وربما أكثر دون أن يصفق كلوبان بيديه.

عندئذ فتح جرنجوار عينيه ونظر إلى ملك الغجر بذهول، فرآه يسير ذهاباً وإياباً ويقف لحظة أمام النار الملتهبة...

وفجأة ضرب كلوبان جبهته بيده، كأنه يتذكر أمراً، فقال:

ـ توقفوا! مهلاً! مهلاً! لقد نسيت أمراً... ففي قوانيننا نحن لا نشنق رجلاً قبل أن نعرضه على نسائنا، ففي حال رضيت به إحداهن زوجاً فقد تنقذه من العقاب...

ثم استطرد: تلك هي آخر فرصة أمامك لتنجو من الموت أيها الصديق...

فاختلجت روح جرنجوار وتنفس الصعداء، وعاد الأمل إليه.

فكانت هذه المرة الثانية التي يعود فيها إلى الحياة، وخلال وقت لا يزيد على نصف ساعة.

لكنه لم يعلق أملاً كبيراً على هذه الفرصة الجديدة.

فتربع كلوبان على عرشه مرة أخرى، واستدعى النساء إليه...

وقال لهن:

ـ هل ترضى إحداكن بهذا الوغد زوجاً لها؟ أمامكم زوج بلا مقابل فلتأخذه من تشاء.

لكن جرنجوار في حالته الحزينة لم يكن جديراً بأن يروق في عيون الكلاب، لذلك كان الإقبال عليه صعباً وربما مستحيلاً.

لكنه سمع إحدى النساء تقول:

ـ كلا... كلا، من الأفضل أن يشنق، فذلك أدعى إلى اللهو والتسلية.

أخيراً تقدمت فتاة مترهلة الجسم، مستديرة الوجه، وأخذت تتفحص ثياب الشاعر قطعة بقطعة، وغمغمت قائلة:

ـ كلها خرق بالية!...

ثم سألته:

ـ أين معطفك؟

فأجاب:

ـ لقد فقدته.

ـ وقبعتك؟

ـ اختفت في دار العجائب.

ـ وحذاؤك؟

ـ تمزق

ـ وكيس نقودك

ـ ليس عندي كيس نقود، ولا نقود لأضعها فيه.

فقالت الفتاة:

ـ فلتشنق إذن، ولتحمد الله.

ودارت على عقبيها، وتركته ومضت.

بعد ذلك جاءت عجوز شمطاء، مجعّدة البشرة دميمة الطلعة، فارتجق جرنجوار خوفاً من أن ينال حظوة في عينيها، إنما، من حسن الحظ أن العجوز قلبت نظرها عليه لعدة مرات، ثم هزت بكتفيها وقالت:

ـ إنه مخيف كالفأر الجائع.

وأتت بعدها صبية في مقتبل العمر، عليها مسحة من الجمال.

فقال لها الشاعر متوسلاً بصوت خافت:

ـ أنقذيني.

فنظرت إليه بإشفاق، ثم أطرقت رأسها، وبدت على وجهها علامات التردد، لكنها في النهاية قالت فجأة:

ـ كلا... كلا... أخشى أن يضربني صديقي «لانجو»

وهنا أيضاً تحطم آخر أمل لجرنجوار.

فقال له كلوبان:

ـ إنك سيء الحظ أيها الزميل.

وأهاب بالنساء مرة أخرى أن يفكرن في الأمر، وقال:

ـ ألا تريده إحداكن؟

وفي هذه اللحظة بالذات سمع جرنجوار كلمة تتردد في كل أنحاء المكان.

ـ ازمرالدا... ازمرالدا!...

فارتعدت أوصال جرنجوار، ولم يفهم معنى هذه الكلمة، ولكنه لاحظ أن الغجر يفسحون طريقاً لفتاة نحيفة رشيقة أقبلت تتخطر بينهم. في تلك اللحظة التفت جرنجوار إلى الفتاة، وحبس أنفاسه.

لقد كانت الراقصة البوهيمية... التي سحره جمالها، وسحره رقصها وغناؤها فغمغم بينه وبين نفسه:

ـ ازمرالدا... ذلك اذاً هو اسمها.

وتذكر أحداث ذلك النهار بكاملها.

ثم كيف أن مجرد ذكر هذا الاسم كان ضربة قاضية على روايته التمثيلية، لأنه حمل البقية الباقية من المتفرجين على مغادرة القاعة الكبرى.

تبين لجرنجوار، أن للراقصة البوهيمية الساحرة مكانتها في نفوس زملائها! إذ أقبلوا عليها جميعاً يحيونها... وكأنهم يطلبون رضاها...

فشقت طريقها بينهم وعنزتها الصغيرة الجميلة تخطر وراءها وتهز قدميها ذات اليمين وذات اليسار...

فنظرت إليه الراقصة...

وشاهدت حبل المشنقة حول عنقه!

فتحولت إلى كلوبان وسألته بحدة:

ـ هل تزعمون شنق هذا الرجل؟

فأجابها ملك الغجر:

ـ أجل أيتها الزميلة، ما لم تقبليه زوجاً لك.

فقلبت شفتها السفلى، كما فعلت عندما رأته في الطريق بينما كان يتعقبها، إلا أنها قالت بدون تردد:

ـ نعم قبلت به زوجاً...

انتاب جرنجوار شعوراً لم يسبق أن أحس به من قبل، فقد شعر بأنه في عالم عجيب بكل فصوله، ورغم أن المفاجأة هذه المرة كانت سارة جداً، إلا أنها هزت أعصابه هزاً عنيفاً، لدرجة جعلته لا يستطيع الوقوف على قدميه خاصة بعد إزالة حبل المشنقة عن عنقه، فتهالك على المقعد الخشبي...

تقدم من ملك الغجر وطلب منه إحضار إناء من الخزف فجيء به، وتناولت ازمرالدا هذا الإناء، وقدمته إلى جرنجوار وهي تقول:

ـ ارم هذا الإناء على الأرض

فأطاعها جرنجوار، وسقط الإناء على الأرض وتكسر إلى أربع قطع...

فقال كلوبان وهو يضع يديه على رأس الزوجين

ـ أيها الزميل، لقد أصبحت زوجتك...

ـ أيتها الزميلة، لقد أصبح زوجك.

وهذا الزواج لمدة أربعة أعوام... فاذهبا...



الفصل التاسع

ليلة الزواج

لا يزال جرنجوار يعتقد أن مغامراته ليست سوى ضرباً من الخيال، ولم يؤمن بأنها حقيقة لا شك فيها، إلا عندما وجد نفسه بعد دقائق جالساً في غرفة صغيرة أمام مائدة عليها بعض الطعام والشراب، وازمرالدا على مقربة منه في الغرفة نفسها.

إلاَّ أنه شعر بأن الراقصة البوهيمية لا تريد الاعتراف به كزوج، ولا تريد أن تعترف بوجوده معها في غرفة واحدة، فأخذت تسير ذهاباً وإياباً. وتضع الطعام على المائدة! وتتحدث من حين إلى آخر إلى عنزتها! وتقلب شفتها السفلى من حين إلى الآخر... وهي لا تجود على جرنجوار بنظرة أو بكلمة واحدة.

أيها القارىء الكريم، مما لا شك فيه أنك كنت طفلاً، وربما كان من حسن حظك أنك لا تزال كذلك...

ولا بد من أن تكون قد راقتك، في أحد الأيام، الحصول على فراشة جميلة وأخذت تطاردها من شجرة إلى شجرة... وإذا لم تحظ بها فأنت تراقبها بمزيج من الفضول والإعجاب، وهي تحرك جناحيها الرقيقين...

هكذا كان جرنجوار يرقب الفتاة البوهيمية الجميلة، وكان يتبعها ببصره وهو يشعر بالفضول والإعجاب...

فيشعر وكأنه يعيش في بستان نضير، لا في إحدى غرف دار العجائب.

لكن ازمرالدا لم تكن في نظره تلك الفراشة الجميلة، وحسب، بل كانت في اعتقاده ملاكاً طاهراً.

وهذا الملاك قد أفسد آماله في الصباح، وجاء في المساء ليصلح ما أفسد، ويصوب الأمور...

فقال في نفسه:

ـ مما لا شك فيه أنها تحبني، بل لا أشك في أنها قد أحبتني من أول نظرة، ولو لم يكن ذلك لما ارتضت بي زوجاً بمثل هذه السرعة، ومهما تعددت الآراء والأقاويل فأنا الآن زوجها، ولي عليها حق الأزواج.

فاقترب منها بمقعده.

إلا أنها رمقته بنظرة صاعقة وهتفت:

ـ ما تريد مني؟

فأجاب بلهجة أدهشته هو نفسه:

ـ كيف تسألين مثل هذا السؤال يا عزيزتي ازمرالدا؟

فالتفتت إليه بعينيها الواسعتين الساحرتين وقالت:

ـ لا أعرف ماذا تقصد؟

فهتف بحدة...

وتذكر فجأة أنه أمام فتاة لا تعرف من معاني الطهارة، والفضائل، أكثر مما تعرفه أية مخلوقة مثلها نشأت في أوحال دار العجائب...

ـ ماذا تقولين!! ألست لك أيتها الصديقة الساحرة؟؟ ألست لي!

وأحاط خصرها بساعده.

إلا أن الفتاة انزلقت من يده كالسمكة، وتركت وشاحها الحريري بين أصابعه...

فتراءت لشاعرنا في صورة لم يعهدها من قبل...

فقد رآها بوجهها المحتقن... وبعينيها اللامعتين... وقد برزت أسنانها كاللبوة الغضبى! ورأى في يدها خنجراً لم يعرف كيف وصل إليها ولا كيف استلته، ولا من أين جاءت به،

أما العنزة، في الوقت نفسه، فقد أخذت تهز رأسها وتدفع قرنيها إلى الأمام وكأنها تستعد لهجوم معين...

كل هذه الأحداث التحضيرية حصلت في طرفة عين، فقلب جرنجوار نظره بين الراقصة وعنزتها وهو في ذعر ودهشة من تصرفاتهما الغريبة،

فقالت البوهيمية:

ـ يبدو أنك شديد القحة، ولا تلتزم حدودك!

فأجابها بابتسامة مرحة:

ـ عفواً، ولكن لماذا ارتضيتي بي زوجاً لك؟

وهل يفترض بي أن أتركك لتشنق؟

فتنهد الشاعر وقد تحطمت آماله الغرامية وقال:

ـ إذن... ليس عندك رغبة بالاقتران بي، وقد فعلت ذلك فقط لتنقذيني من الشنق؟

ـ لا!... ليس لي غرض آخر... فاعلم ذلك!...

«يبدو لي أنني لست أسعد في الحب مني في التأليف، ولكن ما الفائدة إذن من تحطيم ذلك الإناء المسكين؟...» قال ذلك بصوت منخفض.

ثم سأل بصوت مرتفع:

ـ إذن لن أكون زوجك؟

فأجابت بدون تردد:

ـ كلا!

ـ وهل تقبلين بي عشيقاً؟

فقلبت شفتها وقالت بغضب

ـ كلا!...

إذن، تقبليني صديقاً

ففكرت لحظة ثم أجابت:

ـ ربما!..

شجَّعه جوابها هذا فسأل:

ـ هل تعرفين معنى الصداقة؟

ـ أجل! معناها أن تكون مثل الأخ وأخته...

معناها أن تكون روحانا كأصبعين في يد واحدة...

أي تتلامسان ولا تتحدان...

فسألها:

ـ والحب هل تعرفين معناه؟

فأجابت بصوت يرتجف ولمع بريق في عينيها:

ـ آه! الحب؟ يعني الحب ائتلاف الروح في جسدين، أي أن يصبح المتحابان ملاكاً واحداً.

وقد قالت ذلك بحماسة زادتها سحراً وجمالاً.

فابتسم جرنجوار وسأل:

ـ كيف يجب أن يكون الإنسان لكي يرضيك ويعجبك؟

ـ يجب أن يكون رجلاً بكل معنى الكلمة.

ـ ومن أنا إذن؟

ـ الرجل يمتطي جواداً، ويضع على رأسه خوذة، ويمسك في يده حساماً...

ـ فالرجل لا يكون رجلاً بدون جواد!... وهل تحبين أحداً؟

فصمتت، وفكرت...

ثم أجابت:

ـ سوف أعلم ذلك.

ـ ولماذا لا تحبينني؟

فنظرت إليه بإمعان... ثم قالت:

ـ لا يمكن أن أحب سوى الرجل الذي يمكنه أن يحميني...

صعد الدم إلى وجه جرنجوار، وشعر بأن هذه الطعنة كانت مسددة نحوه، إلى صدره عمداً... خاصة بعد أن تذكر حادثة اختطافها وما حل به...

فأدرك أن الفتاة إنما تشير إلى ما بدا من عجزه عن حمايتها عندما انقض عليها الأحدب ورفيقه في الطريق...

عند ذلك تذكر الحادث جيداً فقال:

ـ في الواقع، كان يجب أن أبدأ حديثي بهذا الموضوع، ولكنني كنت مضطرب الذهن...

ـ بربك حدثيني كيف استطعت الإفلات من مخالب كازيمودو؟

فسرت في جسد الفتاة رعدة قوية... وغمغمت بصوت منخفض قائلة:

ـ قبح الله وجه هذا الأحدب المخيف... فمخالبه من حديد...

ـ أجل... إنه مخيف... ولكن كيف تخلصت منه؟

فتنهدت الفتاة بحسرة ثم ابتسمت... ولم تجب.

فعمل جرنجوار إلى اللف والدوران كي يعرف الجواب.

فسألها:

ـ هل تعرفين لماذا تعقبك هو ورفيقه؟

فأجابت بكل حدة وغضب:

ـ كلا... ولكنك تعقبتني أيضاً، فلماذا فعلت ذلك؟

ـ في الحقيقة لم أكن أعلم لماذا تعقبتك؟

وساد صمت بينهما...

ثم انحنت الراقصة فوق العنزة وأخذت تلاطفها...

فقال ليجاذبها أطراف الحديث:

ـ ما أجمل هذه العنزة الصغيرة؟

ـ أحبها مثل لو أنها أختي

ـ لماذا يدعونك ازمرالدا؟

ـ لا أدري!

ـ فتأملها طويلاً وبدون كلام!...

وما لبث أن أشار إلى عقد من الزمرّد في عنقها، تتدلى منه حقيبة حريرية صغيرة وقال:

ـ فهل أطلق عليك هذا الاسم نسبة إلى هذا العقد الزمردي؟

ومد يده ليلمس الحقيبة...

فتراجعت الراقصة إلى الوراء خطوة وصاحت

ـ كلا... لا تمسها.

ثم أخفت الحقيبة في صدرها بشكل جنوني.

فدهش جرنجوار من هذا التصرف...

إلا أنه كان مصمماً على معرفة كل ما يتمكن من معرفته عن أمر الفتاة وشؤونها وشجونها وأصلها وفصلها... الخ.

فسألها:

ـ هل أنت فرنسية؟

ـ لا أعلم

ـ كم كان عمرك عندما أتيت إلى فرنسا؟

ـ كنت لا أزال طفلة

ـ ومتى أتيت إلى باريس؟

ـ أتيتها في العام الماضي

ـ والشخص الذي عقد زواجنا، هل هو ملك الغجر فعلاً؟

فقالت الفتاة باختصار:

ـ أجل

عند ذلك تنبهت الى غرابة هذا الزواج.

لأنها عادت وسألته:

ـ أنا لا أعرف حتى مجرّد اسمك

ـ إذا شئت أن تعرفي اسمي، فهو بيار جرنجوار

فقالت له الفتاة:

ـ أنا أعرف اسماً أظرف من هذا!

فأجابها الشاعر:

كم أنت قاسية القلب، إنما لا بأس، لكنك لا تغضبيني بمثل هذا الكلام. لكنني واثق من أنك ستحبينني إذا عرفتني حق المعرفة، فقد أحببتني بصراحة، وذكرت لي بعض الشيء عن تاريخ حياتك، لذا علي أن أحدثك عن نفسي أيضاً بمثل صراحتك الصادقة...

سبق أن قلت لك أن اسمي بيار جرنجوار، كان أبي من رجال الحكومة، ولكنه قتل مع أمي في حصار باريس منذ ستة أعوام، وتركتني طفلاً في السادسة من عمري، لا أملك حذاء على أرصفة العاصمة.

ولا أدري كيف عشت إلى أن بلغت السادسة عشرة من عمري.

كل ما أذكره أنني كنت أستجدي رغيفاً من هنا وأسرق فاكهة من هناك وعندما يقبل الليل، ألقي بنفسي في طريق أحد رجال الشرطة فيحملني إلى السجن حيث أجد كومة من القش أرقد عليها طوال الليل...

عندما بلغت السادسة عشرة من العمر، بدأت أفكر في مهنة أحترفها لأحصل بواسطتها على كسب معيشتي...

فزاولت كل مهنة ممكنة، واشتغلت جندياً، إنما لم تكن لي الشجاعة الكافية لهذه المهنة الشريفة...

ثم انخرطت في سلك الرهبنة. إلا أنني لم أكن مؤمناً كما يجب ولم يكن لي الصبر عن الإفراط في الشراب...

فبلغ بي اليأس أشده، فعملت نجاراً، ولكنني لم أكن قوي البنية متين العضلات.

وبعد جهود جبارة، ومحاولات متعددة، اكتشفت أنني لا أصلح لشيء، إثر ذلك قررت أن أكون شاعراً، وإنها لمهنة يجدر بكل متشرد أن يحترفها... وتبقى أفضل من احتراف اللصوصية في مجمل الأحوال.

وفي أحد الأيام، ساعدني الحظ في مقابلة الأب كلود فرولو، أسقف نوتردام، فأشفق علي، وعلمني القراءة والكتابة، واللاهوت، ونظم الشعر، ثم قذف بي إلى ميدان الحياة... فكان أول عمل قمت به تلك المسرحية العظيمة التي مثلت اليوم في دار العدالة...

تلك هي أهم مؤهلاتي، وبعيداً عن ذلك أعرف طائفة من أعمال الشعوذة وسوف ألقنها لعنزتك.

وإذا نقدني مدير الشرطة أجر الرواية التمثيلية، فإنني سأضع كل نقودي بين يديك...

أجل، فأنا أضع كل مواهبي وعلومي وقصائدي في خدمتك، كما أنني مستعد لأن أعيش معك الحياة التي تريدينها، وأنا مستعد لأن أكون زوجك إذا شئت. وسأكون أخاك إذا أردت...

توقف عن الكلام وهو يلهث بعد الجهود التي بذلها في كلامه هذا، ثم نظر إليها ليرى مدى تأثير حديثه في نفسها...

خلال كل حديثه كانت الراقصة مطرقة الرأس تنظر إلى الأرض.

فنظرت إليه فجأة وسألت:

ـ هل تعلم ما معنى كلمة «فيبوس»؟

لم يتمكن جرنجوار من اكتشاف الصلة بين هذه الكلمة وقصة حياته، إلا أنه سُرَّ لهذا السؤال الذي يتيح له فرصة للتدليل على سعة علمه.

فأجابها قائلاً:

ـ هذه الكلمة أصلها لاتيني ومعناها الشمس.

فهتفت الفتاة بصوت الحالم:

ـ الشمس؟

واستغرقت بعد ذلك في التفكير لحظة، ثم سارت إلى الباب، وقبل أن يعي جرنجوار ما تبغيه أو ماذا تريد، كانت الفتاة وعنزتها قد انصرفتا.

وعندما نهض للالتحاق بهما رأى باب الغرفة يغلق، وسمع حركة المزلاج من الجانب الآخر...

وغرق شاعرنا في التفكير محاولاً حل لغز هذه الفتاة الراقصة...



كاتدرائية نوتردام

تقع كاتدرائية نوتردام في إحدى نواحي باريس على بقعة أرض يحاوطها مجرى نهر السين من ناحيتين... وهي لا تزال صرحاً شاهقاً تحف به العظمة والمهابة والجبروت.

أمامها ساحة واسعة في إحدى جوانبها تمثال لشارلمان يعتلي صهوة حصانه، تحيط بها ساحات واسعة من عدة جهات، كما تعتبر صرحاً من الفن القوطي الذي لا تزال آثاره منتشرة في كل أنحاء أوروبا... يحتاج وصفها الدقيق إلى مجلدات...

رغم كونها بنيت منذ زمن قديم فلا تزال عليها مسحة من الجمال الفني الرائع، ولا تزال أجراسها الضخمة وبرجها الأثري محطة أنظار السواح من كل أنحاء الدنيا...

وقد تعرَّضت إلى التخريب والتشويه عدة مرات لكن إعادة ترميمها وتحسينها تمت ولعدة مرات.

نجد على أحد جدران نوتردام هذه العبارة اللاتينية «الزمن أعمى والإنسان أحمق».

إلا أننا إذا تفحصنا آثار التخريب التي حلت بهذا البناء العظيم، وحاولنا أن

نرجع كل أثر إلى فاعله، تبين لنا أن أعمال الزمن أقل كثيراً من أعمال الإنسان التخريبية.

من نظر إلى وجه الكاتدرائية يرى مجموعة عظيمة من التماثيل، لو نحتت في غير صورها الحالية لكانت آية من آيات الفن، وهي في الواقع آية من آيات فن النحت والحفر.

إلا أنك قد لا تعترف بذلك لسبب واحد، هو أنها لا تمثل باقة من الحسان يرقصن حول نافورة ماء، أو جوقة من الملائكة تدور حول المخلص أو حول الكاتدرائية...

بل انها تمثل طائفة من الأبالسة والشياطين كما تخيلهم النحات وقد شدوا بعضهم إلى بعض بسلاسل من حديد...

ويبدو لك بعد هذه الشياطين ذات الوجوه البشعة مجموعة هائلة من الأقبية يتوسطها الباب الكبير المؤدي إلى الداخل...

وإذا وقفت أمام هذا الباب... تبدو لك في الداخل الأعمدة الرخامية الهائلة، التي تنهض عليها أبراج الكنيسة. علماً أن المسافة بين الباب الرئيسي وهذه الأعمدة، لا تتجاوز تسعة أمتار... وقد مرَّ عليها من جيد الزمن ستة قرون، ذلك أن الباب أقيم في عهد الملك شارلمان. أما الأعمدة فقد تم تشييدها في عهد الملك فيليب أوغست!

والآن ترى أن باب الكاتدرائية في مستوى أرض الشارع في الخارج، ولكنه لم يكن كذلك عندما شيده شارلمان... بل كان يؤدي إلى سلم عظيم ذي احدى عشرة درجة. لكن مستوى أرض باريس قد ارتفع مع مرور الزمن... فالتهم المستوى المرتفع درجات السلم واحدة تلو الأخرى... إلى أن توارت كلها تحت الأنقاض...

فبدت الكاتدرائية أقل ارتفاعاً مما كانت عليه.

والكاتدرائية في كلتيها ليست بناء كاملاً ينتمي إلى طراز معين واحد من فن العمارة...

بل انها تشكل مجموعة أبنية وأبراج وجدران أقيمت في عهود مختلفة، فامتزج ضمنها الفن الروماني بالفن القوطي.

ويعبر كل جانب منها عن أحد العهود التي مرت بفرنسا منذ أن وضع أول حجر تأسيسي في بنائها.

هكذا نجدها تحمل ضمن الفنون التي عملت على إكمالها، تجمعاً من مختلف أنواع الفنون المعمارية التي سادت في القرون الوسطى وحتى عصر النهضة.

وتتجلى في البرج الذي يبدو من بعيد أيضاً صرامة الفنون في زمن الفتوحات ومختلف تأثيرات الحروب التي مرت عليها.

وهذه النافذة، تنطق بما وصل إليه فن النقش على الزجاج، في عهد الامبراطورية الأولى.

وهذه الأعمدة، تنطق بمدى تغلغل الفن السكسوني، في الفن الفرنسي. و...

الفصل الحادي عشر

اللقيط

قبل سبعة عشر عاماً من بداية أحداث هذه القصة...

وفي صباح أحد الأيام كانت هناك أربع راهبات، يصعدن درجات السلم المؤدي إلى باب الكاتدرائية... وهذه الدرجات غير موجودة حالياً كما مرَّ معنا.

وقع بصر إحداهن على كتلة بيضاء من القماش صغيرة إلى حد ما، وذلك أمام ركن الباب، وقد لاحظت الراهبة أن هذه الكتلة تتحرك.

فانحنت والتقطتها ورفعتها بين يديها، ويا لهول ما رأت، إنه طفل ملفوف بالأقمطة البيضاء... فصاحت بدهشة عجيبة:

ـ يا إلهي! إلى أية نهاية يسير الجنس البشري، هل هذا كفر؟ أم زندقة أم قلة تديُّن؟ أم تهرب من المسؤولية إثر أعمال جنسية غير شرعية؟...

المهم أن الناس قد تنكروا فعلاً لواجبات الأبوة والأمومة...

فقالت لإحدى زميلاتها:

ـ إنه خامس لقيط نجده هنا منذ بداية هذاالعام؟

وقالت الثالثة

ـ ترى هل هو ذكر أم أنثى؟ أظن أننا نرتكب إثماً عظيماً إذا أقدمنا على التحقق من جنسه؟

عند ذلك كانت الراهبة الأولى قد كشفت عن وجه اللقيط.

فصاحت في ذعر قائلة:

- إنه قرد صغير وليس طفلاً يا أختاه!...

فهتفت الراهبات معاً:

- أحقاً ما تقولين؟

وفقزن وأحطن بها من كل ناحية...

وتطاولن بأعناقهن لرؤية هذا اللقيط الغريب العجيب...

فقالت الراهبة الأولى:

- إن لك يكن قرداً فهو مثل رائع للبشاعة.

فتحرك اللقيط!... ثم بكى بصوت مرتفع

فصاحت إحدى الراهبات:

- يا إلهي إنه يهدر كالثور!

فأجابتها الراهبة الأولى:

على ما أظن أنه مخلوق وسط بين الوحش والإنسان، والرأي الصائب بنظري يقول بأنه ينبغي رميه في اليم أو حرقه...

- يا للشيطان! أظن أن أحداً لن يتبنى هذا الوحش الصغير!...

وقالت أخرى:

- يبدو أنه في العام الثاني من عمره على الأقل... فقد تخطى عهد الرضاعة...

فقالت الأولى:

- يخيل إلي إن له عيناً واحدة فقط! وهل يعقل ذلك؟

فجأة فتح باب الكاتدرائية... فالتفتن جميعهن إليه:

فخرج من الباب قس في مقتبل العمر...

ولم تشعر الراهبات بالقس...

فقد كن في شغل باهتمام بذلك اللقيط العجيب.

فسمع القس طرفاً من أحاديثهن أو أدرك الموضوع.

فاقترب منهن، ونظر إلى اللقيط، ثم مدَّ يده كي يتناوله،

وفيما أصبح بين يدي القس... أمعن النظر طويلاً في وجهه..

ثم قال:

ـ سأتبنى هذا الطفل...

وإذ بالراهبات أصبحن متعجبات من موقف القس، لكنهن سررن لمصير الطفل...

فلف القس الطفل في ردائه، وعاد به إلى الكاتدرائية، وترك الراهبات جامدات في مكانهن..

لكنهن لا يعرفن كيف يتصرفن تجاه هذا الموقف...

إلى أن قالت إحداهن في همس:

ـ لم أقل لكن سابقاً أن هذا القس هو كلود فرولو وهو شاب غريب الأطوار، يحب القيام بمغامرات شتى؟...

الفصل الثاني عشر

من هو كلود فرولو؟

يتحدر كلود فرولو من أسرة متوسطة الحال، فهو ليس رجلاً عادياً ولا هو من الأشراف أو من الأكليروس...

وعندما أصبح يافعاً وهبه والده للكنيسة...

ففي أحضان الكنيسة تعلم القراءة والكتابة وتعلم اللاتينية...

كما تعلَّم أن ينظر إلى الأرض...

ويتكلم بصوت منخفض، دليل الاحترام والتواضع.

من صفاته الخاصة، صارم الأخلاق بطبيعته، محباً للدرس والتحصيل، سريع الفهم قوي الذاكرة...

وعندما بلغ السادسة عشرة من عمره، فاز في امتحان حول عملية فهم اللاهوت، من ثم سمي قساً...

لم يرتضِ كلود فرولو بما حصله، بل راح يواصل الدرس والتحصيل، فشغف بالفنون الحرة ودرس الطب...

ثم انكب على دراسة خصائص الأعشاب وما قيمة خواصها... فحذق علاج الحميات وتضميد الجروح...

كما درس من اللغات المعروفة آنذاك: اليونانية والعبرية...

وفي صيف العام ١٤٦٦ اشتدت حرارة الجو في معظم أنحاء أوروبا، فتفشى الطاعون في باريس. وفتك بنحو أربعين ألفاً من أهلها.

قضى هذا المرض اللعين أيضاً على والدي كلود فرولو فكانوا من بين الذين أهلكهم الوباء... لكنهما تركا للقس الشاب أخاً كان لا يزال طفلاً صغيراً في مهده!...

فكان هذا الطفل، هو آخر من بقي لكلود فرولو، من أسرته الكبيرة...

هكذا أحدثت كارثة الطاعون أزمة في حياة كلود، إذ جعلته المسؤول الأول والأخير عن شقيقه الصغير.

فأشعرته بناحية أخرى من الحياة غير الدرس والتحصيل، وحشو الذهن بعلوم لا نهاية لها. فأشفق فعلاً على أخيه فحنا عليه!... وأحبه كثيراً!... وهو الذي لم يحب قبل ذلك سوى الكتب والكنيسة... فتطور هذا الحب الأخوي بشكل عجيب.

فأثر هذا الطفل بأخيه قبل أن يؤثر هو عليه، إذ خلق من كلود فرولو إنساناً جديداً، تختمر في نفسه جميع العواطف الإنسانية بكل قواها...

وعلى هذا الأساس وضع كلود كل اهتمامه وعنايته في أخيه جيهان، وحرص عليه حرصه على شيء ثمين قد يتعرض للكسر عند أي خطأ يحصل... فأصبح منه بمثابة الأب والأم والأخ معاً!...

فقرر ألاَّ يتخذ لنفسه زوجة... وألا يكون له من دون جيهان ولد...

رغم كل هذا التحول العاطفي، لم يهمل عمله وأبحاثه، وجدَّ في مواصلة الدرس والتحصيل بعصامية فائقة لم تتركه يوماً أن ينزلق في مهاوي الطيش...

فعرف في كل الأوساط بعلمه واستقامته، وأحبه أسقف باريس وشمله بعطفه وعنايته، فأشرق أمامه المستقبل. وفتحت له أبواب الكنيسة... لخدمتها... إلى أن بلغ

العشرين من عمره...

حيث أصبح من أبرز القسس الذين يعظون ويخدمون الكنيسة بشكل عام وذلك عبر الخدمة في كاتدرائية نوتردام وباريس.

* * *

إثر قيامه بإحدى العظات في الكاتدرائية وقد انصرف الناس، غادر باب الكاتدرائية في ذلك اليوم عندما رأى هذا اللقيط الشاذ بين أيدي الراهبات الأربع وسمع حديثهن عنه، وآراءهن التي لا تنطوي على الرحمة.

فأشفق بكل حواسه على اللقيط التعس ورحمة لسوء حاله، ودمامته، وسوء تكوينه...

فقرّر فوراً أن يتبناه ليصبح لأخيه جيهان زميلاً وأليفاً... حتى إذا نزلت به (أي بكلود فرولو) نكبة أو مصيبة، وجد أخوه من بعده من يعنى به ويسهر عليه.. على هذا الأساس حمل اللقيط وتبناه...

وما كاد يخلو بالطفل، ويمعن النظر في وجهه، حتى وجد آية عجيبة من آيات الدمامة والبشاعة!... والأكثر غرابة هو أنه ذو عين واحدة... ورأسه غائص بين كتفيه. وفي صدره وظهره نتوء واضح الدلالة على الاحديداب...

لكن كل هذه التشويهات لم تعمل سوى على زيادة القس الشاب شفقة على اللقيط. فأقسم أن يعنى بأمره من أجل أخيه. وسوف يكون له من هذا الإحسان ثواب يمحو كل تقصير غير مقصود منه في حق أخيه. كما كان هذا التبني عملاً إنسانياً وهبه لأخيه.

فأطلق على اللقيط اسم (كازيمودو) وهي كلمة لاتينية معناها (نقص التكوين).

في الواقع لم يكن اللقيط مخلوقاً غريباً... بل كان اعتذاراً عن مخلوق آدمي...

الفصل الثالث عشر

من هو قارع الأجراس؟

هكذا نشأ كازيمودو وترعرع في كنف كاتدرائية نوتردام، وبلغ مرحلة الشباب وهو يعمل قارعاً لأجراس الكاتدرائية، وذلك بفضل الأب كلود فرولو الذي أصبح بدوره أسقفاً لنوتردام...

ومع مرور الزمن وتوالي الأيام... توثقت أواصر العلاقات بين قارع الأجراس والكاتدرائية، فنشأ في عزلة عن المجتمع إذ كان مسكنه بالقرب من الأجراس.

هكذا قطعت دمامة وجهه كل صلة بينه وبين الناس... فعاش كالسجين بين جدران جسمه المشوه... وعاش جسمه المشوه سجيناً بين جدران الكاتدرائية التي احتضنته، وبسطت عليه حمايتها... وبذلك أصبحت كاتدرائية نوتردام البيضة التي خرج منها كازيمودو... ومن ثم أصبحت وكره وبيته، ووطنه، ودنياه...

مع مرور الزمن توّلد حنين قوي غامض بين هذا المخلوق والكاتدرائية، فكان في طفولته يحبو بين أروقتها وأبهاتها المظلمة، وينساب بجوار جدرانها الباردة، فأصبح وكأنه حشرة من صنع هذا البناء العظيم، لكنه بقي عاجزاً عن فك كل ألغازها ومعانيها!...

وعندما أمسك لأول مرة بسلاسل النواقيس وتعلق بها، وكانت الأجراس تطلق رنينها الثاقب فتحتل مكاناً مرموقاً بين أضلاعه.

أما كلود فرولو فقد شعر، وهو يسمع هذا الرنين بمثل ما يشعر به الأب حين يسمع أول صوت يخرج من فم ابنه...

وهكذا!...

وشيئاً فشيئاً توثقت أواصر الألفة بين الأحدب والكاتدرائية، فقد كانت كل حياته، يرقد بين جدرانها لا يتركها إلا نادراً، وكان لها عليه نفوذ غامض، انتهى إلى درجة أصبح فيها الأحدب يشعر بأنه جزء من الكاتدرائية كأعمدتها الهائلة، وكتماثيل الشياطين الموثقة على جدرانها... أو الملائكة المنتشرة داخلها...

تجدر الإشارة هنا الى أن كازيمودو استطاع مع طول إقامته في الكاتدرائية أن يعرف مداخلها ومخارجها، وكل نافذة وثقب فيها... فما من حفرة إلا وعرف عمقها!... وما من جدار إلا وعرف ارتفاعه! وما من برج إلا وتسلق فوقه كما تتسلق الهرة سقوف المنازل، وكم من مرة شوهد متعلقاً بالجدران القائمة كأنه أحد الزواحف... من هنا كانت سواعده المفتولة...

وعندما وجده كلود فرولو أعور، وأحدب، وأعرج، بذل جهوداً جبارة حتى علمه الكلام، ولكنه ما أن أصبح قارعاً للأجراس وهو في الرابعة عشرة من عمره، حتى أصيب بعاهة جديدة!...

ذلك أن دوي الأجراس المتكرر ثقب طبلة أذنه، فأصبح أصمَّ

وبذلك أغلق الباب الوحيد الذي تركته الطبيعة مفتوحاً بينه وبين العالم ليتلقى بعض المعلومات عبر أذنيه...

وبإغلاق هذا المنفذ فقد آخر منفذ لأشعة النور والمسرة، فأصبحت نفسه تتخبط في ظلام دامس...

إثر ذلك أصبحت كآبته أمراً دائماً مستعصياً علاجه كدمامته وتشويهه.

أدّى الصمم عنده إلى نوع من البكم، فلجأ إلى التزام الصمت تجنباً لسخرية الناس منه...

فأصبح لا يتكلم إلا إذا انفرد بنفسه!

هكذا أصبح اللسان الذي بذل كلود فرولو قصارى جهده لحله من عقاله معقداً، وباختياره الشخصي...

كان إذا اضطر إلى الكلام حرَّك لسانه بين شدقيه كما يتحرك الباب الذي طال إغلاقه وقد أثر عليه الصدأ!

فلو تمكنا من أن ننفذ إلى أعماق كازيمودو، أو أن نلقي ضوءاً على نفسه المظلمة... أو استطعنا أن نضع وراء جسده المشوه مشعلاً يصل نوره إلى قرارة نفسه المغلولة... أو تمكنا أن نكشف عما يعتمل في أعماقه...

عند ذلك لوجدنا هذا التعيس أشبه بالسجين الذي يوضع في صندوق من الفولاذ أقل ارتفاعاً من أن يتسع لوقوفه، وأقل طولاً من أن يتسع لرقاده.

فقد أدت آثار العاهة الجديدة التي نزلت به إلى إحساسه باتساع الهوة بينه وبين العالم الخارجي... وأدت أيضاً إلى غرس بذور الكراهية والحقد والخبث في نفسه.

فتولَّد خبثه عن وحشيته، وتولدت وحشيته عن دمامته، فكانت طباعه نتيجة منطق تكوينه وتسلسل الأحداث عليه...

ولا بد من أن ننصفه بقولنا أن هذا الخبث لم يكن من غرائزه المتأصلة في نفسه، بل شعر به عند اختلاطه الأول بالناس، ذلك لأن الناس احتقروه ولفظوه وتبرموا منه... حتى السخرية والابعاد...

وإذا تتبعنا أحاديثهم عنه نجدها سلسلة متصلة الحلقات من التهكم والسخرية والهزء... إلى ما هنالك من هذه الصفات...

وعندما نما وترعرع، لم يرَ حوله غير الكراهية فالتقط السلاح الذي جرحه حتى العمق وأسقطه على الآخرين. فأصبحت الكراهية أبرز صفاته...

إثر ذلك أصبح لا يختلط بالناس إلا مكرهاً إو كارهاً، وكان يجد في الكاتدرائية ما يغنيه عن عشرة الناس... إذ فيها تماثيل الملوك والقديسين ووجوه هذه التماثيل لا تسخر منه ولا تهزأ به...

كما فيها تماثيل الشياطين...

وحتى هذه الشياطين لا تحقد عليه... ولا تهزأ منه...

ألأنه يشبهها أو يكاد يكون واحداً منها؟...

فهو لا بد من أنه يتحدث إلى هذه التماثيل جميعاً كلما انفرد بها...

ففي حال أقبل أحد الناس لاذ بالفرار كما يفر العاشق إذا فوجىء مع عشيقته...

هكذا أصبحت الكاتدرائية وطنه ودنياه، فهو يرى جمال الربيع في صور الأزهار المنقوشة على زجاج النوافذ.

ويرى جمال الجبال في أبراج الكاتدرائية، ولا يعرف من البحار غير البحر الخضم من الآدميين الذين يراهم عبر نوافذ الكاتدرائية الشاهقة وهم ينسابون في شوارع باريس وأزقتها، أو عندما يتجمعون في ساحة الكاتدرائية...

فرغم كونه يحب كل شيء في الكاتدرائية، إلا أن أحب الأشياء إلى نفسه الحبيسة كانت تلك الأجراس النحاسية العظيمة التي تهتز بقوة عضلاته وبإرادته أو بأوامر أسقف الكنيسة...

وعندما تدق الأجراس تهتز نفسه فرحاً وتحرك فيه عاطفة الخيلاء وحب الحياة...

أجل... فهو يحب الأجراس، ويربت عليها بيديه، ويدللها، ويتحدث إليها ويفهمها...

أما الأبراج الثلاثة العظيمة فكانت في نظره أشبه بأقفاص تضم طيورها المغردة...

وقد كانت هذه الطيور المغردة سبباً في صممه أيضاً، ولكن الأمهات يحببن من أولادهن أكثرهم إيلاماً لهن...

كان رنين هذه الأجراس هو الصوت الوحيد الذي يدخل سمعه ونفسه بكل محبة وسرور... وكان أضخم الأجراس أحبهم إليه...

فقد بلغ عدد الأجراس خمسة عشر جرساً متفرقة في أبراج الكاتدرائية، وهذه الأجراس كانت بمثابة عائلته فهو ينعم بينها، ويفزع إليها، ولا يعرف مصدراً للسرور سواها...

أصعب ما يمكن التعبير عنه هي بهجته وتشوقه في أيام الأعياد أو الحفلات الدينية الكبرى... خاصة عندما يشير إليه الأسقف بيده إشارة خاصة يفهمها وحده...

فيتسلق السلم الحلزوني بأسرع مما يصعد الناس السلم العادي. حتى إذا وصل إلى الأبراج... يقوم بمعانقة الجرس الكبير... ويربت عليه ويناجيه بأعذب كلمات الحب... ومن ثم راح يلاطفه كما يلاطف الفارس جواده العزيز...

ومن ثم بعد رنينه يشعر نحوه بالشفقة للمجهود الذي بذله...

وفي مناسبات أخرى متى حان الوقت صرخ بمساعديه في الأبراج الأخرى فيمسكون بسلاسل الأجراس...

وهكذا تبدأ النواقيس حركتها المنتظمة...

فينطلق كازيمودو بالتصفيق ومن ثم يدق صدره بيديه، فيتبع الأجراس بعينه

المفردة فتلمع فرحاً لمعان النجم المتألق...

وعندما يمتلىء الجو برنين الأجراس، ويهتز الهواء بزئيرها، يصبح كازيمودو رجلاً آخر...

فيصبح متنقلاً ذهاباً وإياباً، كالوحش السجين، ويعلو الزبد شدقيه... فيطلق من فمه صرخات مخيفة غير مفهومة، ويرتجف جسمه المشوه مع اهتزاز الأبراج... ويهتز رأسه مع اهتزاز الجرس الكبير فتشتد به نشوة السرور الوحشي. فيثب فوق قاعدة الجرس الكبير، ويحاوط رأس الجرس بساعديه، ويحركه بقدميه، ويتحرك معه ذهاباً وإياباً، فيصبح الجرس وحشاً ضاجاً صاخباً، نصفه رجل ونصفه من النحاس...

يا للمنظر الغريب المؤثر... فكأنها معانقة بين الأم وطفلها...

الفصل الرابع عشر

الكلب وسيده

كره كازيمودو عامة الناس باستثناء شخص واحد، أحبه أكثر مما أحب الكاتدرائية ذاتها وأجراسها، أحبه ربما أكثر من نفسه...

ذلك الشخص هو الأب كلود فرولو...

إن ذلك لأمر طبيعي، فهو الذي أشفق عليه واحتضنه صغيراً وتبناه ورباه وأنشأه...

وبين قدميه كان كازيمودو يزحف وهو طفل... وإليه يفزع كلما طارده الغلمان أو نبحت وراءه الكلاب...

أضف إلى ذلك... فقد علمه كلود فرولو الكلام والقراءة والكتابة... وأهم شيء في حياته هو أن جعل له وظيفة أساسية: جعل منه قارعاً لأجراس كاتدرائية نوتردام...

على أساس كل ذلك كان وفاء كازيمودو عظيماً وعميقاً... ولا حد له... رغم أن القس كان يتهجَّم عليه أحياناً ويقسو عليه في بعض الأحيان، وكأن إخلاصه له لم يصبه يوماً من الأيام أي فتور أو أي تشكيك.

هكذا كان الأحدب عبداً مطيعاً للقس، وكأن له أفضل خادم... وأخلص حارس...

وعندما فقد كازيمودو حاسة السمع، صار القس يتحدث إليه بلغة الإشارات لا يفهمها أحد سواهما...

وبهذه الظروف الضيقة أصبح كلود فرولو الشخص الوحيد الذي لا تنقطع علاقته بكازيمودو الأحدب المسكين...

وقد كانت قوة نفوذ الأسقف على قارع الأجراس لا تعادلها قوة، فلو أراد الأسقف لقذف الأحدب بنفسه من قمة أعلى الأبراج إلى الحضيض فقط إرضاء له... ومهما كانت النتائج...

وكان من الغرابة بمكان أن نجد تلك القوة الطبيعية الجبارة التي تتمثل بكازيمودو وتخضع بكل مشاعرها وأحاسيسها لسلطان رجل نحيف نحيل كالقس...

إلا أن هذا الخضوع لم يكن نتيجة الطاعة البنوية والوفاء بالجميل فحسب، بل كان أيضاً نتيجة لسيطرة عقل جبار متعسف على عقل لم يكتمل نضجه، وعبارة عن تسلط ذكاء متفوق على ذكاء حيوان من نوع ذكاء وحوش الغابات...

يمكننا أن نقول أن الأحدب كان يطيع الأسقف ويحبه أكثر مما يطيع الكلب أو الجواد أو الفيل صاحبه.

وفي زمن سير هذه القصة، كان كازيمودو يسير نحو النضج الجسماني في حين أخذ كلود فرولو ينحدر نحو الشيخوخة...

فالأسقف لم يبق ذلك البسيط الذي يهمه الإشراف على تربية شقيقه اليتيم، بل أصبح رجلاً مهيب الطلعة، فيلسوفاً عميق التفكير، وأسقفاً ترتجف أمامه أساقفة مئة وأربع وسبعين أبرشية منتشرة في أنحاء العاصمة الفرنسية...

كل ذلك لم يصرفه عن مواصلة الدرس والتحليل والتفكير، كما لم يصرفه عن الإشراف على تعليم أخيه والاهتمام بالأحدب...

لكن الزمن مزج حياته وأعماله وطباعه بمرارة لا تطاق، ذلك لأن أخاه جيهان،

لم ينشأ كما أراده أن يكون، بل كان كالشجرة التي تضرب بإرادة البستاني عرض الأفق، وتتحول بكل عناد إلى حيث تجد الهواء والدفء...

وهكذا تحول جيهان إلى الجهالة والخمول، وانصرف إلى ملذاته بكل ما في شبابه من قوة وصحة...

لم يعد باستطاعة الأب كلود فرولو إلا أن يسدي إليه النصائح وهو أعلم الناس بمصيرها...

فأثّر ذلك كل التأثير في نفس الأسقف، فانطوت ضلوعه على اليأس والمرارة، وصرف جهوده إلى أنواع جديدة من العلوم يتلهى بها عن يأسه وقنوطه...

فبدأ أبحاثه الكيميائية وأبحاثه في العلوم الغامضة بشكل عام، فزاده ذلك هيبة في نظر مرؤوسيه... وبات الجميع ينظرون إليه كشخص غريب الأطوار، غامض الشخصية...

فوصل الخيال عند بعضهم بأنه يتعرّض للجنون في كل لحظة.



العدالة

كان جيهان فرولو، كما رأينا، يتنقل في كل مكان يظن أنه سيجد فيه ضرباً من التسلية واللهو أو ميداناً للتسلية والدعابة.

ففي اليوم التالي لعيد المغفلين وقد مرَّت معنا أحداثه... كان هذا الفتى مع صديقه روبين بوسبان يشاهدان محاكمات المذنبين أمام محكمة الشرطة في منطقة الشابتليه وسط باريس.

وكان الحكم الفصل، في هذه المقاضاة من مهمات الكونت روبير دستوفيل... مدير شرطة باريس...

إلا أنه كان قد أفرط في الشراب ليلة عيد المغفلين فلم يتمكن من النهوض باكراً والذهاب إلى الشاتيليه.

وكانت النتيجة أن مساعده فلوريان بريديان لم يكن معتاداً على القيام بمثل هذه الأعمال وخاصة في مثل هذه الظروف...

لكنه جلس على منصة الحكم، ليقضي في مصير المتهمين...

وقد يندهش الكثيرون إذا علموا أن فلوريان بريديان هذا كان أصم...

لكن صممه لم يكن يمنعه من إصدار أحكام واجبة التنفيذ، وغير قابلة للاستئناف...

يبدو أنه قد يكون كافياً للقاضي بأن يتظاهر بأنه يسمع، فأكثر القضاة صم وإن كانوا يسمعون...

والصمم في هذه الحالة يكون من نعم الله على العدالة، وعلى المحكومين...

لأن ذلك لا يجعل للضجة سبيلاً إلى انتباه القاضي، عند ذلك ينصرف القاضي بكل حواسه وأفكاره إلى إصدار الأحكام العادلة بين الناس، وبحق السماء...

ذلك هو رأي فلوريان بريديان على الأقل!...

* * *

ضرب القاضي مطرقته على المنصة...

وبدأت محاكمة المذنبين...

وحضر جيهان ورفيقه لمراقبة الأحكام وإصدار أحكامهما بما يتراءى لهما.

فقال جيهان محدثاً صديقه روبين:

ـ أنظر... هذا القاضي يبدو عليه وكأنه لا يعرف الرحمة... فقد حكم على هذه العجوز المسكينة بمئة فرنك غرامة، لأنها ارتدت ثوباً قصيراً.

وهذا الرجل النبيل متهم بالمقامرة...

يا إلهي؟ متى كنا نجد هنا عميد الكلية واقفاً في قفص الاتهام!...

مئتا فرنك غرامة هو حكم الحق الذي يردع أمثالهم.

ـ وهذه الحسناء ما خطبها؟

ـ كانت تتزين بحزام موشى بالذهب.

ـ خمسماية فرنك غرامة!

أجل، إن بريديان أعمى، لا يرى الجمال بقدر ما هو أصم، ولا يسمع صوت الرحمة!

يا للشيطان!...

- إنه أميرنا، أمير المغفلين!... أليس هذا كازيمودو الأحدب الأعور الأعرج الأصم؟...

لقد كان المتهم كازيمودو بالفعل، وقد شد وثاقه بالحبال...

وكان بجواره الكابتين فيبوس دو شاتوري، بثوبه العسكري الأنيق الموشى بالشعار الملكي.

ولم يكن في كازيمودو ما يميزه أو يلفت النظر إليه سوى دمامته الصارخة وعضلاته المفتولة... وفيما عدا ذلك لا شيء، لكنه بدا هادئاً ساكناً، يلتفت من حين إلى آخر إلى وثائقه بعين يلمع فيها بريق الغضب والنقمة...

إنكب فلوريان بريديان على قراءة أوراق القضية، وكان من عادته أن يفعل ذلك قبل المحاكمة، وذلك ليعيد إلى ذاكرته أسماء المتهمين والحالة التي أوصلتهم إلى القضاء... ونوع التهمة الموجهة إلى كل منهم، فتتكون لديه فكرة عن أجوبة المتهم ومن ثم يصبح قادراً على طرح أسئلة ضمن الموضوع ليلقيها عليهم...

بهذه المطالعة السريعة للقضية، يصبح بإمكانه أن يخبىء قدر الإمكان عاهة الصمم التي تمنعه من سماع الأجوبة!

بالفعل تمكن من إخفاء صممه إلى أبعد حدود النجاح، حتى وصل إلى وقت خدع فيه نفسه...

وليس أسهل من أن يخدع الإنسان نفسه.

فالأحدب يحب دائماً أن يرفع رأسه...

ومن كان في لسانه عيب يميل دائماً إلى الخطابة، والأصم يتكلم دائماً بصوت خافت.

كان فلوريان بريديان يرغب دائماً في إظهار نفسه «ثقيل السمع» وعند ذلك

كان يعتذر كلما افتضح أمره...

قرأ القاضي إذن أوراق القضية...

بعد ذلك أغمض عينيه، وأحنى رأسه إلى الوراء كي يكسب منظره شيئاً من المهابة.

فأصبح في تلك اللحظة أعمى وأصم في الوقت نفسه، وهما صفتان لازمتان للقاضي الكامل...

ثم بدأ باستجواب المتهم:

فسأله:

ـ ما اسمك؟

لقد كانت القضية من نوع لم يحسب المشرّع حسابه لها، فهي قضية متهم أصم أمام قاضي أصم.

فلم يشعر كازيمودو بالسؤال الذي وجه إليه، وظل ينظر إلى القاضي ببساطة...

ودون أن ينطق ببنت شفة

هنا لم يشعر القاضي الأصم بصمم المتهم، فاعتقد أنه أجاب على سؤاله كما يفترض بكل متهم أن يجيب فقال:

ـ حسناً، وكم عمرك؟

التزم كازيمودو الصمت مرة أخرى، ومرة أخرى اعتقد القاضي أنه أجاب على سؤاله...

فسأله القاضي:

ـ ما هي مهنتك؟

وكازيمودو لم يتحول عن صمته.

فلاحظ الحاضرون هذا الموقف العجيب.

فبدأوا يتهامسون...

فقال القاضي معتقداً أيضاً أن المتهم قد أجاب على السؤال التالي.

كفى...

ـ إنك متهم أولاً بتعكير صفو الأمن... وثانياً بمحاولة اختطاف إحدى النساء، وثالثاً بالتمرد ومقاومة جنود مولانا الملك... بماذا تدافع عن نفسك ضد هذه التهم؟...

والتفت إلى كاتب الجلسة. وقال:

ـ هل سجلت أجوبة المتهم أيها الكاتب؟

هنا انفجر الكاتب والجمهور ضاحكين، فأحدث ضحكهم ضجة لم تغب عن الرجلين الأصمين...

بالنسبة إلى كازيمودو هزّ كتفيه باحتقار.

أما فلوريان، فقد اعتقد أن مصدر هذا الضحك بسبب عبارة نطق بها المتهم بقصد تحقير هيئة المحكمة، وجعله يعتقد ذلك لأنه رأى الأحدب يهز كتفيه.

فصاح القاضي:

ـ هذه العبارة توصلك إلى الشنق أيها الشقي، هل تعرف إلى من تتحدث؟

فكان هذا الكلام من قبل القاضي سبيلاً أوسع للضحك...

فضجت القاعة بكاملها بالضحك والضجيج...

واشترك في هذا المرح موظفو المحكمة ورجال الشرطة الذين يحافظون على النظام.

أما كازيمودو فقد كان الوحيد الذي حافظ على هدوئه وسكونه...

والسبب هو نفسه: لأنه لم يدرك شيئاً مما يدور حوله.

لكن القاضي ازداد غضباً واشتد حنقه، فقرر أن يضرب المتهم ضربة تردع الحاضرين وتلزمهم احترام هيئة المحكمة...

فصاح بالمتهم بشكل انفعالي للغاية:

ـ كيف تجرؤ يا هذا على إهانة قاضي هذه المحكمة وهو الممثل لمدير الشرطة الذي يعمل على منع الجرائم، والمحافظة على الأمن، وتنظيف شوارع المدينة، وترميم أرصفتها، ومكافحة الأمراض والأوبئة، وباختصار تأمين كل مصالح المدينة بدون مقابل، ودون أن يكون له أي أمل في مرتب؟!...

إلا تعلم أنني فلوريان بريديان، مساعد مدير الشرطة ونائبه و...

وقبل أن يكمل تعداد وظائف مدير الشرطة، واختصاصاته... فتح فجأة باب وراءه، ودخل منه مدير الشرطة بنفسه...

واستمع إلى كلامه... ثم قاطعه بقوله:

ـ كفى، كفى يا سيدي، إنني أطالبك الآن بأن تصدر ضد المتهم حكماً يردعه عن ازدراء العدالة والهزء بممثليها.

والتفت إلى المتهم وسأله بحدة:

ـ ماذا فعلت أيها الوغد؟

فظن المتهم أن مدير الشرطة يستجوبه ويسأله عن اسمه، فخرج عن صمته لأول مرة وأجاب بصوت أجش:

ـ كازيمودو.

وكانت الصلة بين الجواب والسؤال منقطع تماماً، فضج الحاضرون بالضحك فصاح مدير الشرطة.

ـ أتسخر مني كذلك أيها الشقي؟

فاعتقد كازيمودو أن مدير الشرطة يسأله عن نوع عمله...

فقال:

ـ قارع أجراس نوتردام. فصاح مدير الشرطة:

ـ سأدق عنقك كما تدق الأجراس أيها الوغد، فهل سمعت ؟

فقال كازيمودو:

ـ أظن أنني قد بلغت العشرين من العمر في الشهر القادم.

فكان هذا الجواب أكثر مما يتحمل مدير الشرطة، فصاح:

ـ أتسخر من مدير الشرطة يا هذا؟

أيها الجنود انقلوا هذا الشقي إلى ميدان «لاجريف». وليضرب هناك بالسياط، ثم يترك ساعة في الميدان بعد ضربه.

إثر ذلك انكب كاتب الجلسة على أوراقه وراح يسجل الحكم.



القصاص

يقع ميدان «لاجريف» قرب كاتدرائية نوتردام، ويطل على هذا الميدان منزل قديم، عرف باسم «برج رولاند» نسبة إلى السيدة رولاند صاحبة هذا المنزل.

إنها امرأة فقدت زوجها أثناء حصار باريس، فأثرت الفجيعة في نفسها، لكنها قررت تمضية بقية حياتها بطريقة ناسكة ومتعبدة.

كما قرّرت جعل منزلها مكان استراحة لكل عابر سبيل، ففتحت أبوابه بشكل دائم كي يستريح كل عابر من عناء السير أو مشقة الحياة...

ولكل شريد يطلب مأوى، أو مسكن، أو مكان يختبىء فيه هرباً من ظلم...

وألغت هذه السيدة من حياتها كل أنواع التمتع والملذات في الحياة الدنيا، فأقامت في غرفة واحدة من هذا المنزل العظيم، وهي غرفة عملت على سد جميع أبوابها ونوافذها، ما عدا كوة صغيرة تشرف على ميدان لاجريف، وكان المحسنون يضعون فيها الطعام للناسكة المتعبدة.

هكذا بقيت السيدة رولاند ضمن صومعتها لا تتركها لحظة واحدة إلى أن فارقت الحياة...

فقد كان إظهار الحزن والجزع على هذا النحو، من العادات التي انتشرت بين النساء في ذلك العصر...

بعد أن ماتت السيدة رولاند، لم تخلُ الصومعة قط من ناسكة تقيم فيها بمعزل عن كل الناس حزناً على فقيد عزيز، أو تكفيراً عن إثم يحييه تبكيت الضمير... أو ما شاكل...

عند حصول أحداث هذه القصة، كانت غرفة السيدة رولاند تقطنها امرأة يعرفها القارىء، إنها الأخت جيدول التي كانت تطارد ازمرالدا بلعناتها وهي ترقص...

وقد جرى حديث بين امرأتين كانتا بين الجمهور الذي احتشد في ميدان «لاجريف» لمشاهدة تنفيذ الحكم في كازيمودو.

فقالت إحداهن:

ـ إلا تسمعين قرع الطبول يا جرفيز؟

فأجابت جرفيز:

ـ أجل... أجل... كالمعتاد يبدو أن ازمرالدا ترقص وتداعب عنزتها، يجب أن تشاهدي رقصة هذه البوهيمية يا مابيت... إنها راقصة بارعة... هلمي بنا. امسكِ جيداً بساعد ابنك حتى لا يضيع وسط الجماهير المزدحمة.

فصاحت مابيت:

ـ كلا... كلا... أنا أمقت أولئك الغجريات، إنهن يسرقن الأطفال، وأخشى أن تسرق الراقصة ولدي...

وأمسكت جيداً بيد ابنها، كأنها تخشى أن يسرق منها.

فقالت جرفيز:

ـ إن رأيك في البوهيميات كرأي الأخت جيدول.

ـ ومن هي الأخت جيدول؟

فصاحت بها:

ـ يا إلهي!... ألا تعرفينها؟ إنها عجوز ناسكة، تقيم في هذه الغرفة بشكل منعزل كلياً عن الناس... أنظري، ها هي تبسط ساعديها من النافذة تهدد وتتوعد، ترغي، وتزبد وهي تزداد غضباً وغيظاً كلما أبصرت أحداً من الغجر أو حتى سمعت طبولهم.

ـ آه! ما أشد نحافتها! إنها أشبه بهيكل عظمي، ولكن ما سبب غضبها على الغجر؟...

ـ لها قصة معهم يا عزيزتي جرفيز، لقد كانت هذه المرأة، التي تقولين إنها أصبحت هيكلاً عظمياً، صبية رائعة الجمال، سحرت الرجال كافة وتزاحموا على نيل رضاها... وقد كان جمالها هذا سبباً في ضياعها... لكونها وقعت في حب رجل من النبلاء يدعى الڤيكونت دوكورمونتريل...

وقد أغراها الڤيكونت بثروته ونعمه، وأخذها إلى قصره في مدينة ريمز وأقامت عنده بضعة أشهر...

وما لبث أن انصرف عنها، فهجرها... وعادت إلى باريس كئيبة، حزينة، إلا أنها ما لبثت أن اتخذت عشيقاً آخر لها، وما لبثت أن استبدلته بسواه... مسكينة هذه المرأة...

فقالت جرفيز:

على العكس، لا أرى في قصتها شيئاً من الغرابة.

ـ مهلك... ومنذ ستة عشر عاماً تقريباً، وضعت هذه المرأة التعسة طفلة، وأحبتها حتى العبادة، لأنها كانت سلوتها في حياتها المحزنة التي اضطربت بعد أن مرت بالزلة الأولى.

أضف إلى ذلك، كانت وحيدة ليس عندها أقارب ولا أهل، ولذلك أصبحت

موضعاً للسخرية والهزء، والاحتقار، أينما ذهبت، وكيفما حلت.

فعندما رزقت بهذه الطفلة منحتها كل حبها وعنايتها واهتماماتها، لأنها المصدر الوحيد لسعادتها، والمخلوقة الوحيدة التي يمكن أن تحبها متى كبرت وترعرعت، وأظنك تدركين أن النساء، خاصة اللواتي من هذا الطراز، يظمأن دائماً إلى الحسب... فيصبحن بحاجة إلى عشيق بشكل دائم، أو إلى طفل يغدقن عليه حبهن بغير حساب.

وهذه المرأة لم تجد عشيقاً تحبه...

فأحبت ابنتها، وأرضعتها من ثديها، وصنعت لها الثياب بيديها، فأعادت إليها هذه السعادة مسحة من الجمال، فعادت سيرتها الأولى، ووقفت أكثر أرباحها لتؤمن كل أسباب الراحة لابنتها.

وفي إحدى الليالي، تركت الأم ابنتها في مهدها وخرجت لقضاء حاجة...

وقد سرت عندما عادت لأنها لم تسمع صراخ ابنتها، فاطمأنت إلى كون الطفلة لم تستيقظ من نومها، لكنها ما كادت تقترب من المهد حتى تسمَّرت في مكانها...

سبب ذلك أنها لم تجد الطفلة!...

وكل ما وجدته من آثارها هو «فردة» حذاء من القماش كانت قد صنعته لها مع الجوارب وغيرهما...

وقفت الأم مذهولة لحظة... ثم عادت وابتسمت...

فقد تصورت أن الطفلة لا بد من أنها قد بكت كثيراً في غيابها، وجاءت إحدى جاراتها وأخذتها الشفقة بها فحملتها إلى غرفتها...

فهرعت الأم التعسة تطرق أبواب الجيران، وتسأل عن طفلتها، إنما بدون جدوى...

لم يتمكن أحد من أن يرشدها إلى مكانها... اختفت الطفلة!...

فاندفعت الأم إلى الشوارع كاللبوة التي فقدت أشبالها، وراحت تستوقف المارة وتسألهم فرداً فرداً عن طفلتها!...

وانقضى النهار ومرّ الليل... ولم تعثر الأم على وحيدتها...

فزال الأمل بعودة الطفلة تدريجياً... فسكن اليأس قلبها وحواسها...

وفي صباح اليوم التالي، قيل لها إن أحد الجيران أبصر امرأتين من الغجر تخرجان من منزلها في الليلة السالفة، فأيقنت المسكينة أن الغجر قد اختطفوا طفلتها الحبيبة!...

فانطلقت بسرعة جنونية إلى حيث كانت مضارب الغجر على أطراف المدينة، إلا أنها لم تجد لهم أثراً، فقيل لها أن الغجر شدوا رحالهم في الليلة السابقة وساروا...

وبعد يومين شوهدت الأم التعسة وقد اشتعل رأسها بالشيب وبدأ جسمها بالهزال تدريجياً!...

هذه هي قصة الأخت جيدول التي عكفت عن ملذات الدنيا، واعتزلت العالم بعد ذلك الحزن على ابنتها والذي استمر حتى اليوم...

حالياً، تعيش هذه المرأة في هذه الغرفة، وتأكل الفضلات التي تلقى إليها من هذه النافذة، وتمضي معظم أوقاتها في الصلاة والعبادة، ولا تنسى قط ابنتها، وترمي بالشتائم على كل الغجر...

فهي حتى اليوم لا تزال تبكي ابنتها، ولا تزال تحتفظ من آثارها «بفردة الحذاء» التي وجدتها في سريرها بعد أن خطفت.

هزت مابيت رأسها وغمغمت قائلة:

ـ مسكينة هذه المرأة، لها كل الحق بأن تمقت البوهيميين، أما أنا فلم أحسن الظن بهم مطلقاً...

* * *

أثناء هذا الحديث كان ميدان لاجريف قد غص بالمشاهدين...

كل من مرَّ من هناك وشاهد وجود أربعة من رجال الشرطة في ميدان لاجريف كان ذلك دليلاً على أن هناك مجرماً سيشنق... أو سياط...

وقد رأى الناس رجال الشرطة في الميدان فخفوا لرؤية المجرم... ونوع العقاب... وقد ازداد اهتمامهم حين أدركوا إن المجرم في هذه المرة هو أحدب نوتردام والذي بويع بالأمس كأمير المغفلين...

انتظر الناس طويلاً دون إن يملوا أو يسأموا، وذلك ليشاهدوا أداة التنفيذ، وهي عبارة عن عجلة موضوعة بشكل أفقي، يشد إليها المجرم وهو عاري الجسد، وتدور العجلة في وسط الميدان كي يتسنى لجميع المشاهدين رؤية وجه المجرم.

أخيراً وصلت عجلة المتهم وهو مشدوداً إليها.

فما أن جرِّد من ثيابه، ووضع في العربة ورآه الناس جميعاً، حتى امتلأ جو الميدان بضحكات الهزء وصفير السخرية.

ولقد كان من تهكم القدر حقاً، أن يكون تنفيذ العقوبة في الأحدب التعس في المكان نفسه الذي اجتازه في اليوم السابق محمولاً على الأكتاف ووسط الهتافات.

وقف مندوب الشاتيليه وتلا نص الحكم بصوت مرتفع، ثم عاد من حيث أتى...

كل هذا الضجيج وهذه الأفعال، وكازيمودو لا يأتي بحركة ولا ينطق بكلمة... فقد كانت كل مقاومة من جانبه ضرباً من العبث، وذلك لأن الحبال والسلاسل التي أوثق بها كانت تخز في جسده... وتدمي أعضاءه. وقد حاول عدة مرات ووجد نفسه غير قادر على تمزيقها أو قطعها...

وكان يسمح للقوم بأن يشدوا وثاقه، وأن يدفعوه أمامهم...

والأحدب لا يعبر عن شيء من الاشمئزاز أو الغضب في حين تبدو الدهشة على وجوه الحمقى والسفهاء...

فقال جيهان فرولو لصديقه روبين بوسبان، وكانا قد رافقا كازيمودو من الشاتيليه إلى ميدان لاجريف:

ـ تباً لهذا المغفل، فهو لا يعلم ماذا يراد به في هذا الميدان؟

عندما جرّد الأحدب من ثيابه، قهقه الناس بملء صدورهم، فرأوا نتوء ظهره وصدره، والشعر الكثيف الذي يغطي ساعديه...

إلا أنهم حبسوا أنفاسهم عندما رأوا بيار تورتيري، جلاد الشاتيليه يقترب ويقف إلى جانب المتهم...

خلع الجلاد معطفه وشمَّر عن ساعديه ببطء ورصانة، وتناول سوطاً ينتهي بعشرات من الخيوط الجلدية المعقدة...

وما لبث أن أشار بشكل سريع إشارة خاصة:

فبدأت العجلة تدور حول نفسها...

عند ذلك اهتز جسد كازيمودو...

وظهرت على وجهه المقيت علامات الدهشة والعجب، مما جعل الناس ينفجرون بالضحك...

رفع الجلاد يده فوق رأسه...

وحرَّك السوط بقوة...

فشقت ألسنته الهواء بصوت مسموع... وأرسلت فحيحاً كفحيح عشرات الأفاعي:

ومن ثم هبطت على ظهر الأحدب التعس...

فأدار كازيمودو رأسه بسرعة، كمن استفاق من حلم، فأدرك ما يراد به... وكل ما يحدث حوله...

فتقلصت عضلات وجهه... لكنه لم يئن ولم يتأوه

وهبط السوط على ظهره مرة ثانية، فثالثة، فرابعة...

في حين استمرت العجلة بالدوران...

واستمر السوط يهبط...

وما لبث إن تفجَّر الدم من كتفي الأحدب، وسال على جسمه، ويعلق بألسنة السوط، فيصيب رشاشه وجوه الناس.

فقام كازيمودو عندئذ بمحاولة هادئة للتخلص من وثاقه...

فلمعت عيناه... ونفرت شرايينه...

وتجمعت عضلاته... وتحفزت أعضاؤه

فقام بمحاولة جبارة لكنها يائسة!...

فتمددت الحبال والسلاسل، واستطالت...

لكنها كانت قوية ومتينة... ولم تتمزق.

فعاد الأحدب إلى هدوئه!...

وقد بدت على وجهه علامات التعب والإعياء... فأغمض عينه المفردة، وسقط رأسه فوق صدره... وانتظر الموت...

ولم تظهر عليه أية حركة أخرى بعد ذلك، رغم استمرار السوط بالارتفاع والهبوط على ظهره... وكل جسمه...

ورغم تفجر الدم في كل مكان يهبط عليه السوط...

لكن عقوبة كازيمودو لم تنته بعد!...

فقد كان يتعين عليه قضاء ساعة أخرى على عجلة التعذيب تحت أنظار المشاهدين...

من المعروف أن كازيمودو لم يكن محبوباً من أحد، فلم يحرك عذابه وآلامه الشفقة في نفس أحد...

فكان كيفما حوّل نظره قوبل بعاصفة من الضحك والسخرية وقذف بوابل من الحصى...

فكما قلنا، كان كازيمودو أصم.

إلا أنه كان حاد البصر!

فلم يسمع ضحك الناس وهتافهم... لكنه رأى حركاتهم ووجوههم الضاحكة، وأحس بالحجارة تصيب جسده...

فلم يعبأ بكل هؤلاء، لكنه فقد صبره شيئاً فشيئاً، فرمى الجمهور بنظرة كلها تهديد ووعيد...

إلا أنه كان مشدود الوثائق!

ولذلك لم ينزعج أحد من نظراته!

حتى لم تزعج الذباب الذي تجمع حول جراحه!...

وقام بحركة قوية ليتخلّص من وثاقه...

فاهتزت العربة تحت جسمه القوي.

إلا أن السلاسل لم تنقطع!...

فتأوه وأظلمت سحنته، وارتسم على وجهه المقيت مزيج من الغضب والحقد واليأس...

هكذا مضى بعض الوقت وهو لا يزال هدفاً للهزء والسخرية ورمي الحصى!...

ثم قام بحركة جديدة للتخلص من قيوده!...

وخرج من صمته الطويل، وصاح بصوت خشن أشبه بصوت الوحش الضاري وملؤه غضب وحقد ونقمة!...

ـ جرعة ماء!...

وارتفعت هذه الصرخة المدوية فوق كل أصوات الضحك والهزء!...

إلا أنها لم تحرك في نفوس الناس لا عاطفة الشفقة ولا عاطفة الرحمة، بل كانت على شكل غذاء جديد للسخرية!...

بعد قليل ردد مرة أخرى:

ـ جرعة ماء!...

فقوبل بموجة من الضحك، فقذفته أحدى النساء بحجر وهي تقول له:

ـ ستتعلم بعد الآن ألا تزعج الناس برنين أجراسك!...

ثم قذفه أحدهم بإناء محطم فأصاب صدره... وقال له:

ـ اشرب من هذا الإناء أيها الوحش الدميم... لقد كان وجهك المخيف السبب لأن تضع زوجتي طفلاً ذا رأسين!...

وصاح كازيمودو وللمرة الثالثة وهو يلهث:

ـ جرعة ماء!...

وفي هذه الأثناء شاهد الجمهور فتاة ترتدي ثوباً غريباً فتحت طريقها بين الجمهور، فاقتربت منه ووراءها عنزة صغيرة جميلة ذات قرنين مذهبين.

فنظر إليها الأحدب وهو في شقائه فلمعت عينه. وعرف فيها الفتاة البوهيمية التي حاول اختطافها في الليلة السابقة، فانتابه شعور غامض لكنه اعتبرها سبب عذابه وألمه، فخيل إليه أنها جاءت لتثأر منه فتركله بقدمها أو تقذفه بحجر.

فراقبها بدقة وهي تقترب منه، وتابعت مسيرها نحوه، فأوشك أن يختنق غضباً وحنقاً... ولو كان لبريق عينه قوة لصعق الفتاة قبل أن تصل إليه، لكنها تقدمت بثبات، ومدت يدها بإناء صغير مليء بالماء ووضعت فوهة الإناء على فم الأحدب.

عندئذ شوهدت دمعة كبيرة تملأ عين الأحدب ومن ثم انحدرت على خده المشوَّه.

وربما تكون الدمعة الأولى التي سالت من عينه منذ بلوغه مبلغ الرجال...

فنسي الأحدب أنه عطشان ولم يتجرع الماء، فقلبت البوهيمية شفتها السفلى وضغطت فوهة الإناء على فمه!...

فشرب بشراهة حتى ارتوى... ثم مدَّ شفتيه كأنه يريد أن يقبل اليد التي أغاثته!

إلا أن الفتاة سحبت يدها بسرعة، كما يفعل الطفل الذي يخشى أن يعضه الكلب... فربما تذكرت في تلك اللحظة ما كان من هجومه عليها في الأمس.

فرمقها كازيمودو التعس بنظرة طويلة تعبر عن مزيج من الحزن والتعب...

الفصل السابع عشر

ما هو سر العنزة؟

مقابل كاتدرائية نوتردام يوجد منزل كبير يطل على الكاتدرائية عبر شرفة واسعة كما تطل على ميدان لاجريف أيضاً.

بعد مضي بضعة أسابيع على الحوادث التي ذكرناها (عقاب كازيمودو)، وفي أحد الأيام، كانت باقة من الفتيات الباريسيات تجلسن على هذه الشرفة، ومن رآهن أيقن من نعومة أيديهن، وفخامة ثيابهن، والحلى الثمينة التي تزين صدورهن، إنهن من طبقة النبلاء وحتماً من الأغنياء...

حقيقة الأمر أن هذه الباقة من الفتيات كانت تتألف من الآنسة فلير ديليس ابنة المركيزة دو جوند لورييه صاحبة ذلك المنزل.

ومن قريبتها الآنسة آميوليت دو مونميشيل، والآنسة كولومبا دو جيلفونتين.

كانت الفتيات الثلاث يتهامسن حديثاً، ويتضاحكن بصوت خافت كما تفعل الفتيات عادة حين يدركن بأن هناك شاباً على مقربة منهن!... ولا يعرفن إلى من سيميل؟...

كان هذا الشاب جالساً مع المركيزة دو جوند لورييه في الغرفة التي تتفرع منها تلك المقصورة المطلة على الشرفة...

كانت المركيزة تتحدث إلى الشاب بكل لطف ومودة. وأثناء الحديث تنقل

بصرها بينه وبين ابنتها، ثم تبتسم بين الحين والآخر، وكأنها تبغي تشجيع ميوله إلى ابنتها!...

أما الشاب فكان يجيبها في أدب واحترام... إنما لهجته كانت باردة ورزينة، مما يشير على أنه لم يغرق بعد إلى أذنيه في حب فلير ديليس...

ثم قالت المركيزة وهي تومىء بأصبعها نحو الشرفة:

ـ انظر إليها، بربك هل رأيت فتاة أكثر منها جمالاً ولطفاً؟ لا شك في أنها النموذج الكامل للزوجة الكاملة!...

فأجابها الشاب، وهو يفكر في أشياء أخرى:

ـ لا شك في ذلك، سيدتي!...

ـ ولماذا لا تذهب إليها وتجاذبها أطراف الحديث؟ إنك خجول كثيراً!... تشجع! ولا تخف...

لكننا نؤكد أن الخجل لم يكن من صفات ذلك الشاب الذي كان يرتدي ثياب الضباط.

فلم يتردد في تحقيق رغبة المركيزة، فنهض من مكانه فوراً وسار إلى المقصورة حيث تتواجد الفتيات.

فقال محدثاً فلير ديليس:

ـ عمّا تتحدثين يا ابنة العم العزيزة؟

فابتسمت فلير ديليس، واستمرت في ابتسامتها ذلك لأنها تريد أن تظهر أسنانها اللؤلؤية... فقالت وهي تشير بأصبعها نحو الميدان:

ـ لقد تحدثنا عن الأميرة مرغريت، والنبيلات السعيدات الحظ اللواتي سيقع الاختيار عليهن ليصبحن وصيفاتها. كل واحدة منا تتمنى أن يكون لها هذا الشرف.

وهمّ الضابط الشاب للإجابة، لكن آميوليت صاحت قائلة:

ـ انظري يا فلير ديليس... انظري هذه الراقصة الرشيقة، فهي ترقص في ركن الميدان وقد تجمع الناس حولها بكثرة...

فاشرأب الحاضرون جميعاً بأعناقهم لمشاهدة الراقصة، فهتفت فلير ديليس بلهجة من تذكر أمراً... ثم قالت:

ـ ألم تحدثنا يا ابن العم عن الفتاة البوهيمية التي أنقذتها ذات ليلة منذ نحو شهرين تقريباً من قبضة عشرين لصاً؟...

فأجاب الضابط:

ـ أجل أذكر أنني حدثتك عنها يا ابنة العم!...

ـ انظر وتأمل هذه الراقصة، لعلها تكون صديقتك البوهيمية!...

ولما نظر الضابط بإمعان إلى حيث كانت الراقصة البوهيمية ترقص وسط حلقة من المشاهدين... توقف قليلاً ثم قال:

ـ أجل، إنها هي، لقد عرفتها من عنزتها.

فهتفت كولومبا:

ـ ما أجمل هذه العنزة الصغيرة!...

فقالت فلير ديليس:

ـ وهل قرناها فعلاً من الذهب الحقيقي يا فيبوس؟

فرمقها الضابط بنظرة تهكم...

ثم استطردت الفتاة قائلة!

ـ ما دمت تعرف هذه البوهيمية، فاطلب منها أن تأتي إلينا، علها تدخل التسلية والمرح إلى نفوسنا!...

فأثنت المركيزة- قائلة:

ـ أجل، ناديها!...

وصاحت اميوليت وكولومبا:

ـ أجل، إفعل ذلك بحق السماء.

فقال فيبوس:

ـ وما فائدتكم من ذلك؟ أظن أنها قد نسيتني، ثم إنني لا أعرف حتى اسمها، ومع ذلك فسأحاول.

ثم انحنى فوق حاجز الشرفة وهتف:

ـ يا فتاتي!...

توقفت البوهيمية عن الرقص لحظة، وحولت رأسها نحو مصدر الصوت، فوقع بصرها على فيبوس فتسمّرت في مكانها.

فردَّد الضابط:

ـ يا فتاتي!

وأومأ إليها بأن تدخل المنزل.

أمعنت البوهيمية النظر إليه، وما لبثت أن احمر وجهها وكأن كل قطرة من دمها قد صعدت إلى وجنتيها...

فقامت بسرعة وحملت الدف، وشقت طريقها بين المشاهدين، ودخلت المنزل!.

لم تمضِ لحظة حتى كانت الراقصة واقفة في باب الغرفة وهي لامعة العينين موردة الوجنتين... فأحدث ظهورها تأثيراً عميقاً في نفوس الفتيات الثلاث.

وسبب ذلك كون الفتيات الثلاث كن يطمعن في اجتذاب الضابط الشاب، وقد حلت بينهن من أجل ذلك منافسة خفية غامضة، سلاحها الجمال والأناقة، وكن جميعاً في درجة واحدة من الجمال، ولذلك تعادلت آمالهن بالفوز به...

لكن دخول الراقصة البوهيمية في المباراة ستقلب ميزان التعادل السابق.

فقد كان جمالها من نوع خاص، تضاءل أمامه جمالهن جميعاً، وأحدث ظهورها في تلك القاعة ما يحدثه وجود مشعل في مكان مظلم...

إثر ذلك شعرت كل من الفتيات الثلاث بأن جمالها قد خدش فانقلبت المنافسة بينهن فجأة إلى ائتلاف من أجل مقاومة هذا العدو المشترك...

فقد حصل هذا الائتلاف بالغريزة وبالبديهة دون أن يتبادلن نظرة واحدة أو يلفظن كلمة...

فكما تستطيع تلوين قدح من الماء بقطرة واحدة من الحبر... كذلك يمكنك أن تزعج جماعة من النساء عندما تدخل عليهن امرأة أجمل منهن... ويصبح هذا الانزعاج في أعنف صورة خاصة إذا لم يكن في الجمع سوى رجل واحد!...

لذلك، وبعد ذلك الحماس لاحضارها، قوبلت البوهيمية ببرودة...

وكان من الطبيعي أن تصعدها الفتيات بعيونهن من قمة رأسها حتى أخمص قدميها...

أما هي، فقد استهابت الموقف داخل المنزل الفخم فأطرقت برأسها، ولزمت الصمت في انتظار ما سيقال لها!

فكان الضابط أول من بادر إلى تبديد الصمت البارد الذي سيطر على جو الغرفة:

فهتف بدون موارية ولا مداعبة:

- إنها مخلوقة ساحرة الجمال... أليس كذلك يا ابنة العم العزيز؟

قال ذلك ولم يأبه الضابط بطبيعة الحال إلى الغيرة التي تأججت فجأة في صدور الفتيات الثلاث.

فأجابت فلير ديليس:

- لا بأس بجمالها!...

وهزت كتفيها... وتهامست زميلتاها.

وقد لاحظت المركيزة أن البوهيمية لم تجرؤ على الدخول، فقالت لها:

ـ ادخلي يا بنية.

ثم تقدم الضابط وهو يقول:

تعالي يا فتاتي، إنني لا أعلم أتتذكرينني أم...

فقاطعته وعلى شفتيها ابتسامة ساحرة:

ـ أجل... أجل... إنني أذكرك.

فقالت فلير ديليس:

ـ يبدو لي أن ذاكرتها قوية.

ثم استطرد فيبوس.

ـ كيف قمت بالهرب مني في تلك الليلة؟ هل أخفتك؟

قالت:

ـ كلا!

فقال الضابط:

ـ لقد هربت وتركت لي وحشاً مخيفاً، أعور العينين، إنه قارع أجراس الكاتدرائية، فقد نسيت اسمه الغريب...

ولكن لماذا حاول هذا الشيطان أن يختطفك؟

ـ لا أعلم!

ـ قبحه الله، فقد لقي الجزاء الذي يستحقه، فضرب بالسياط حتى نفر الدم من جسده.

وتذكرت الغجرية منظر الأحدب فتنهدت وغمغمت:

ـ مسكين هذا الأحدب!...

فضحك الضابط وصاح:

ـ يا إلهي! إنك تضعين شفقتك في غير محلها.

وقد لاحظت الفتيات الثلاث والمركيزة أن الضابط لا يحوّل بصره عن الغجرية ولا يتحدث إلا إليها.

لذلك أخذت اميوليت المبادرة وبدأت الهجوم فقالت موجهة كلامها إلى الراقصة:

ـ كيف تجرؤين على السير في الشوارع بمثل هذا الثوب القصير يا فتاة؟

فكان ذلك بمثابة محفز للزميلتين، فتشجعتا على الهجوم، فصاحت فلير ديليس قائلة:

ـ لو رآك رجال الشاتيليه بهذا الثوب القصير فإنهم لن يترددوا في اعتقالك.

وقالت كولومبا:

ـ كما أن أكمامك القصيرة تعرض ساعديك لأشعة الشمس.

لم تلفظ الغجرية كلمة واحدة ولا أي جواب، بل ركعت بجانب عنزتها الصغيرة وأخذت تداعبها، وكأنها لا تقيم وزناً لأولئك الفتيات اللواتي يتحدينها...

فصاحت اميوليت:

ـ ما أجمل هذه العنزة!...

ولاحظت فلير ديليس حزمة صغيرة معلقة في عنق العنزة، فسألت:

ـ ماذا يوجد في هذه الحزمة المتدلية من عنق العنزة؟

فنظرت الغجرية إليها بعينين واسعتين وأجابت:

ـ هذا سري!...

فنهضت المركيزة من مقعدها وقالت:

ـ إذا كنت لا تريدين أن تعرضي علينا بعض رقصاتك وشعوذتك فلِمَ البقاء هنا؟

هبت الراقصة واقفة وتحولت نحو الباب، إلا أن الضابط الشاب أسرع إليها قائلاً:

ـ بحق السماء، سوف لا أدعك تنصرفين هكذا... ابقي لحظة ودعينا نرى رقصاتك... وبهذه المناسبة... ما اسمك أيتها الصغيرة الحسناء؟

فأجابت الراقصة وهي تنظر إليه بإمعان:

ـ ازمرالدا!...

فضحكت الفتيات الثلاث عندما سمعن هذا الاسم الغريب، وقالت كولومبا:

ـ يا له من اسم مخيف؟

في هذه اللحظة اقتربت آميوليت من العنزة، وأخذت تداعبها، وما لبثت أن تناولت الحزمة التي تتدلى من عنقها وفحصتها، فوجدتها حقيبة من القماش مشدودة بخيط... فجذبت الخيط بلباقة، وأفرغت محتويات الحقيبة على أرض الغرفة... فوجدت أن هناك عبارة عن طائفة من الحروف الأبجدية محفورة من الخشب.

وما كادت العنزة ترى الحروق الخشبية حتى قامت بترتيبها بحوافرها المذهبة وبسرعة عجيبة...

لم تمضِ أكثر من لحظة يسيرة، حتى كانت هذه الحروف قد وضعت بعضها إلى جانب بعض وأصبحت كلمة مقروءة.

فهتفت اميوليت:

ـ انظروا ماذا فعلت العنزة؟

فتطلع الجميع إلى الكلمة فإذا هي «فيبوس».

فدهشت المركيزة وصاحت:

ـ أحقاً أن العنزة قد فعلت ذلك؟

فأجابت كولومبا بحدة:

ـ أجل... أجل!...

فقالت فلير ديليس لنفسها وهي ترمق البوهيمية بنظرة أقوى من السهم:

ـ إذاً! هذا هو سرّك.

وغمغمت آميوليت:

ـ «فيبوس»... ذلك هو اسم الضابط!

فقالت فلير ديليس محدثة البوهيمية.

ـ أجل... إن لك ذاكرة عجيبة.

وانفجرت فجأة باكية، فصاحت المركيزة بغضب:

ـ انصرفي أيتها الساحرة... لقد أزعجت ابنتي!

فالتقطت ازمرالدا الحروف الخشبية بسرعة البرق... وأومأت إلى عنزتها وانصرفت.

في حين كانت المركيزة تخفف عن ابنتها وتحاول الترفيه عنها.

أما الكابتن فيبوس فقد راح ينقل بصره بين ازمرالدا وفلير ديليس وتردَّد هنيهة... ثم انطلق في أثر الغجرية.

الفصل الثامن عشر

القس والشاعر

في كاتدرائية نوتردام، كانت هناك غرفة خاصة للأب كلود فرولو، وقد حرم دخولها لأي كان سواه.

ففي هذه الغرفة كان يواصل دراساته وأبحاثه، وإليها كان يلجأ كلما شعر بمرارة الحياة.

دخل الأسقف يوماً هذه الغرفة، وأغلق بابها...

ونظر بدون اهتمام إلى الكتب المكدسة على مكتبه، ومن ثم نظر إلى الأنابيب والقناني ومختلف الأواني المخبرية التي كان يستخدمها في بحوثه الكيميائية، طوال هذه المراحل من أبحاثه...

فهز كتفيه، واتجه نحو النافذة التي تطل على ميدان لاجريف. في حين كانت الشمس قد بدأت تميل إلى الغروب. فأجال ببصره على الميدان بنظرة كاشفة وبدون اهتمام إلى أن رفع بصره على حلقة من الناس في أحد أركان الميدان... فقطب حاجبيه... وتأمل... فأيقن أن الراقصة الغجرية ترقص هناك، رغم الأوامر التي أصدرها مدير الشرطة بإيعاز من الأسقف بمنع الغجر والمشعوذين من القيام بأي نشاط كان في ذلك الميدان.

ورغم ذلك فإن الأسقف لم يغضب. ومع أنه قطب حاجبيه حين أبصر

الغجرية الحسناء، فإنه لم يتمكن من أن يحول بصره عنها.

أما هي، فقد كانت ترقص، وتدق على الدف، وهو يتطلع إليها بعينين واسعتين ينبعث منهما بصيص من لهب.

ولا يمكن لأحد أن يدرك أية زوبعة كانت تعصف وقتئذ في رأسه... إنما، مما لا شك فيه أنه قد ارتجف مرة أو مرتين كما ترتجف الشجرة في مهب الريح... فما هو سر ذلك؟

ويخيل إلى الناظر إلى وجهه أن الحياة لا تدب إلا في عينيه النفاذتين.

لكن الغجرية استمرت ترقص بخفة ونشاط وحيوية، دون أن تشعر بالنظرة الهائلة الساحقة التي كان يرمقها بها الأسقف.

وعلى مقربة منها، كان هناك رجل يرتدي ثوباً مضحكاً نصفه أحمر ونصفه الآخر أصفر...

وكان هذا الرجل يعمل بكل قواه في إبعاد المتفرجين عن الفتاة الغجرية ليفسح أمامها ميدان الرقص.

لاحظ الأسقف عمل هذا الرجل... وعجب من أمره.

فقد رقصت الغجرية مراراً في ذلك الميدان... ولم يكن بقربها هذا الرجل يوسع الحلقة حولها. فمن أين جاء؟ وما صلته بها؟

هكذا توزع انتباه الأسقف بين الراقصة والرجل...

وهو يسأل نفسه بين الحين والحين.

ـ أجل... من أين جاء هذا الرجل؟ وما صلته بها؟

لم يتحمل الأب عدم معرفة ذلك، وراوده الشك، فانطلق من الغرفة، وأغلق بابها... وغادر الكاتدرائية بسرعة.

وقصد الركن حيث كانت الراقصة...

لكنه اجتاز الميدان بكامله، ووصل إلى هناك ولم يجد أثراً للراقصة، لكنه رأى زميلها يدور على المشاهدين ليجمع ما يجودون به.

فدهش الأسقف حين أمعن النظر في وجهه وعرفه...

فانتظر في جهة من الجمهور إلى أن فرغ من عمله، وانصرف المشاهدون...

فاقترب منه وفاجأه بقوله:

- أنني أهنئك بهذه المهنة الجديدة المحترمة يا عزيزي جرنجوار.

فبهت الشاعر قليلاً ثم قال:

- سيدي الأسقف!...

فجمد في مكانه من فرط خجله وحيرته!

إلا أن الأسقف أومأ إليه أن يتبعه!.

وما لبث أن تقدمه إلى باب الكاتدرائية ودخل، فتبعه جرنجوار وهو يقدم رجلاً ويؤخر آخر...

في ذلك الوقت كان فناء الكاتدرائية خالياً من الناس. وقد ساده الظلام... فاستند الأسقف على أحد الأعمدة... ثم قال بشكل مفاجىء:

- تعال... تعال يا عزيزي جرنجوار! عندي أشياء كثيرة أريد عنها إيضاحاً من قبلك... حدثني بادىء ذي بدء كيف حصل أن مرت ستة أشهر دون أن أراك؟ فأين كنت؟ ثم ماذا دهاك لترتدي ثوباً مضحكاً كهذا نصفه أحمر ونصفه الآخر أصفر؟...

فأجاب جرنجوار بحزن وأسى:

- سيدي... أنا أعترف بأن ثوبي غريب، ولا يناسب كرامة الشعراء، لكن ليس باليد حيلة! فالذنب هو ذنب ثوبي القديم الذي رفض أن يلازمني في فصل الشتاء، فتمزق إرباً!...

أضف إلى ذلك ذنب المدنية التي تتقدم بشكل كاف لكي تتيح للإنسان أن يسير في الشوارع عاري الجسد!... فقد عرض أحدهم علي هذا الثوب مقابل ثوبي القديم... وأنا لم أتردد في إبرام هذه الصفقة الرابحة... وها أنذا أشبه بالمشعوذ مني بالشاعر... وهذا انحدار لا شك فيه، لكن ما حيلتي؟

ـ إنني أهنئك للمرة الثانية على مهنتك الجديدة...

ـ سيدي الأسقف، أؤكد لك أن معالجة الفلسفة والشعر أفضل ألف مرة من هذا الضرب من الاستجداء... لكن الإنسان يجب أن يعيش أولاً يا سيدي الأسقف... فحب البقاء غريزة كل الناس حتى الشعراء والفلاسفة منهم.

أطرق الأسقف رأسه قليلاً، ثم رمق جرنجوار بنظرة ثاقبة، وسأله:

ـ قل لي، لماذا ترافق هذه الراقصة الغجرية؟

فهتف جرنجوار:

ـ لماذا؟ إنني أرافقها لأنها زوجتي وأنا زوجها.

فلمعت عينا الأسقف كأنهما شعلتان، فصاح بحدة:

ـ أحقاً ما تقوله أيها التعس؟ وهل غفلت عنك رحمة الله حتى تصبح زوجاً لمثل هذه المخلوقة؟...

فذعر جرنجوار وأجاب بلسان متلعثم:

ـ أعترف لك يا سيدي الأسقف بكل وضوح، فمكانتي عندها ليست أفضل من مكانة أي عابر سبيل.

فأجاب الأسقف:

ـ ولماذا تكلمت إذن عن زواجك بها وقلت إنها امرأتك وأنت زوجها؟

اضطر جرنجوار عند ذلك، إلى أن يقص عليه كل ما حصل معه في دار

العجائب، وقال أن علاقته بالبوهيمية لا تزال كما كانت منذ الليلة الأولى؟

توقف قليلاً عن الكلام ثم استطرد:

ـ لا شك أن ذلك أمر يؤسف له... ويعود ذلك إلى عادات الغجر وتقاليدهم، ولقد قالوا لي في دار العجائب أن ازمرالدا أضاعت أثر والديها وهي صغيرة، وإنها تملك في عنقها طلسماً سيقودها، في يوم من الأيام إلى أحضان والديها، وأن هذا الطلسم يفقد قوته وتأثيره... في حال فرطت صاحبته في طهارتها.

عند ذلك أشرق وجه الأسقف وقال:

ـ نستنتج من كلامك أيها العزيز جرنجوار، ان هذه الراقصة البوهيمية لا تزال تحتفظ بطهارتها... ولا يمكنها أن تخسرها لأي سبب، أو قبل أن تلتقي والديها...

ـ وهل تعتقد أن هناك رجل يستطيع أن يزحزح إحدى الخرافات من أذهان الغجر؟...

فكل ما شاهدته في دار العجائب يشير على أن هذه الفتاة تختلف عن كل امرأة أخرى من نساء عشيرة الغجر تلك...

فهي لم تتخذ حتى الآن من دون عنزتها صديقاً... وإنني أؤكد لك أن كل ما يعزى إليها وإلى عنزتها من أعمال السحر لا أساس له من الصحة...

فازمرالدا تبذل جهوداً جبارة لتعلم العنزة بعض الألعاب البسيطة، فقد أمضت أكثر من شهرين في ترويضها على ترتيب الحروف الخشبية بحيث تتألف منها كلمة «فيبوس».

فصاح الأسقف:

ـ فيبوس؟ ولماذا اختارت هذه الكلمة دون سواها؟

ـ علم ذلك عند ربي، إنما لعلها تتفاءل بهذه الكلمة...

فنظر إليه الأسقف بحدة مرة أخرى...

ثم قال:

- أنا أعرف ضابطاً يحمل هذا الاسم.

فهز جرنجوار رأسه ببطء، وقال:

- لقد أمضيت معها حتى الآن مدة شهرين، ولم أسمعها مطلقاً تتحدث عن أحد الضباط... فيبوس أم غيره؟

بالنسبة لي سيان أن تعرف هذا الضابط أو لا تعرفه، ما دمت واثقاً من أنها و«غالي» تعطفان علي؟

- ومن تكون «غالي» هذه؟

- إنها العنزة!...

فرك الأسقف جبينه بيده، واستغرق في تفكير عميق، ثم تحول بسرعة إلى جرنجوار وقال له:

- أتقسم أنك لم تمسسها مطلقاً؟

- ماذا تعني؟ العنزة؟

- كلا، أعني الفتاة؟

- امرأتي؟ أقسم لك إنني لم أمسها قط؟

- وهل تمضي طوال وقتك في خلوة معها؟

أنا لا أنفرد معها سوى ساعة واحدة كل مساء، إنما لا أحصل من عنايتها وعطفها في هذه الساعة بقدر ما تنال عنزتها.

فصاح الأسقف، وبلهجة المحموم:

- أتقسم لي مرة أخرى أنك لم تمس هذه المخلوقة بأناملك مطلقاً؟

ـ أجل أقسم لك بكل ما هو مقدس، ولكن هل تسمح لي أيها الأب المحترم بأن أُلقي عليك سؤالاً بدوري؟

ـ أجل... تفضل.

ـ ما شأنك أنت وكل هذه التحريات؟

فصعد دمه بكامله إلى وجهه، إنما من حسن حظه أن الظلام كان دامساً فلم يلاحظ جرنجوار شيئاً...

ثم قال الأسقف:

ـ اسمع يا عزيزي جرنجوار، أنت لم تسلم نفسك للشيطان حتى الآن، وأظن أنه بإمكاني إنقاذك، وسأنقذك بمعونته، ذلك لأنني حريص على سعادتك؟

وعليك أن تعلم أن هذه الغجرية ومثيلاتها من بنات الشياطين، فإذا مسست هذه الفتاة بيدك أصبحت قرين الشيطان، فالجسد كما تعلم هو الذي يدنس الروح... فحذار أن تقترب منها؟ أفهمت؟

وعندما أتم عبارته، وقف جامداً، ينظر أمامه بعينين مذهولتين!... وفمه مفتوح!...

فدهش جرنجوار، وسأله بخوف:

ـ ماذا دهاك يا أبتِ؟

أما الأسقف فلم يجبه...

بل وثب بحيوية لم يعهدها فيه جرنجوار، واتجه نحو باب الكاتدرائية، وعند الباب وقف ونظر يميناً بإمعان...

عند ذلك وثب جرنجوار في أثره، ووقف بجانبه، فنظر إلى حيث كان يتطلع الأسقف...

فماذا رأوا معاً؟...

كانت ازمرالدا تسير بجانب حائط الكاتدرائية، والدف تحت إبطها، والعنزة تسير إلى يسارها.

أما إلى يمينها فكان يسير شاب طويل القامة يرتدي ثوب ضابط فتحول الأسقف إلى الشاعر، وحدق فيه بعينين يتطاير منهما شرر الغضب والحنق!...

فأطرق الشاعر برأسه، وغمغم:

- إلى اللقاء يا أبتي!...

وفرَّ مسرعاً وتوارى في الظلام.

لكن الأسقف بقي جامداً في مكانه لحظة، ثم تنهد، وسار بخطىً سريعة في الطريق الذي سلكته الراقصة ومعها الضابط وبرفقتها العنزة...



وقوع الجريمة

لا أحد يعلم، غير الله، وكلود فرولو ما هو نوع العواصف والزوابع التي كانت تعصف في صدر وعقل الأسقف في الوقت الذي وقف في الظلام بعد خروج جرنجوار، وهو يتطلع ولا يرى شيئاً!... وينصت إلى ناحية اليمين وإلى ناحية اليسار ولا يسمع شيئاً!.

فقد قرر أن يلحق بالضابط والراقصة من شارع إلى شارع، ومن زقاق إلى زقاق، وقد اتبع خطاهم وأدرك الاتجاه الذي ساروا به!...

انتهى الضابط والراقصة إلى منزل صغير ذي طابق واحد وفي شارع مظلم، وسمعته معروفة!...

قرع الضابط الباب، ففتحت له امرأة، رآها كلود فرولو من بعيد على ضوء المصباح الذي تحمله السيدة، وهي بدينة مترهلة الجسد، وتحمل سماتها طابع الإثم والرذيلة!...

كما رأى الضابط يتحدث مع هذه المرأة؟

ثم رأى الضابط يناولها قبضة النقود، وإثر ذلك أفسحت المرأة الطريق للضابط وصديقته الحسناء فدخلا معاً!...

لكن الأسقف بقي وحده ولم يجرؤ على متابعتها...

بقي وفي نفسه ظلمة أشد من ظلمة الليل في أشدها!

وفي قلبه سعير أشد من سعير جهنم!...

صمد الأسقف واقفاً في الظلام كالوحش الكاسر!...

ثم أخذ يسير ذهاباً وإياباً أمام الباب كما يفعل الأسد في قفصه!

أخيراً أرسل من فمه زفرة لو كان فيها نار لأشعلت ظلام الليل وبددته!...

فجأة، سمع صوت نافذة تفتح بعنف!

إلا أنه لم يرَ ضوءاً ولم يسمع صوتاً!...

فدار حول المنزل إلى أن وصل إلى جداره الخلفي، وهناك رأى في الطابق الأرضي نافذة مفتوحة ينبعث منها الضوء...

فأخذ الأسقف يزحف لصق الجدار كالحشرة، ونبضات قلبه توشك أن تصم أذنيه!...

وعندما اقترب من النافذة... رفع رأسه بكل حذر ودون أن يلهث ملء صدره رغم ارتفاع عدد ضربات قلبه بكثرة...

ولما رأى الضابط والفتاة جالسين على مقعد كبير بالقرب من النافذة في غرفة عارية الجدران، ليس فيها من الأثاث سوى المقعد، وفراش من الخشب. خُيِّل إليه آنذاك أن قلبه قد توقف فجأة عن الحركة!...

كانت الفتاة مطرقة برأسها، لا تجسر على رفع عينيها إلى وجه الضابط!... لكن ارتفاع الدم إلى خديها!... واختلاج أهدابها!... وابتسامتها المحتشمة الحلوة!... كل ذلك كان يدل على شعورها بالغبطة...

وقالت وهي تربت على رأس عنزتها:

ـ بحق الله لا تحتقرني يا كابتن فيبوس، فأنا أشعر الآن أنني أقدمت على القيام بحماقة كبرى!...

ولا أدري لماذا انصعت إلى طلبك وسرت معك إلى هنا!...

فهتف الضابط الشاب وبصوت يحمل المودة والتعاطف:

ـ أنا! احتقرك؟ وكيف احتقرك يا عزيزتي الصغيرة؟ ولماذ احتقرك؟

ـ لانني رافقتك الى هنا؟

ـ لا! يا صغيرتي الحسناء! أرى اننا لا نفهم بعضنا بعضاً، إنني لا احتقرك، إنما علي ان امقتك!..

فصاحت بذعر:

ـ تمقتني؟ وماذا فعلت بك يا سيدي؟

ـ لانك عنيدة، قاسية القلب..

فقالت له ببساطة وسذاجة:

ـ واأسفاه يا سيدي؟ لقد اقدمت الليلة على كسر قسم يمين مقدسة، وان الطلسم الذي أحمله قد انتزعت قوته الليلة عندما فتحت تلك الانسة السر الموجود في عنق العنزة، وزال سلطانه،.. ولن أحظى بعد الآن على أبي وأمي!..

صمتت قليلاً ثم تابعت:

ـ ولكن ما حاجتي إلى أبي وأمي، ما دمت معك؟

ورمقته بعينيها الواسعتين الساحرتين وكأنها تذوب في حبه!..

فقال فيبوس:

ـ بالفعل، أنا لا افهمك!..

فتنهدت ازمرالدا، واغرورقت عيناها بالدموع!.. وهمست:

ـ ألم تفهم حتى الآن يا سيدي؟ فأنا أُحبك!...

شعر الضابط الشاب بقلق خاصة وقد احس بجو من الطهارة الساحرة يحيط بالفتاة وملأ ذلك الجو العابق الفساد والملذات الدنسة... إلا انه تشجع بعد هذا الاعتراف! فصاح وهو يحيط خصرها بساعديه:

ـ أتحبينني حقاً؟..

فاستطردت وهي تدفع ساعده بلطف:

ـ فيبوس!... أنت كريم الخلق وشجاع، لقد انقذتني!... وانا اللقيطة الشريدة التي رأيتها مراراً... فهكذا عرفتك أنا وقبل أن أراك... إن اسمك فيبوس، وهو اسم جميل، وأنا احب اسمك، واحب حسامك... جرِّد حسامك يا فيبوس، ودعني أراه!..

فهتف الضابط وهو يضحك:

ـ يا لك من فتاة غريبة الاطوار...

لكنه لم يستطع إلا النزول عند رغبتها، فجرَّد حسامه من غمده، وقامت ازمرالدا بلمس نصل الحسام بأناملها، ثم قبلته وهي تقول:

ـ لا شك من انك حسام رجل باسل...

وانتهز فيبوس الفرصة وهي تنحني لتقبل الحسام، فطبع قبلة على عنقها الجميل!...

فانتصبت بسرعة، واحمرت وجنتاها.. إلا أنها لم تغضب، بل سألت بصوتها العذب:

ـ اتحبني يا فيبوس؟

فسقط الضابط على ركبتيه تحت قدميها وقال:

ـ وهل أنت بحاجة لأن تسأليني إن كنت أحبك أيتها الملاك؟ أجل.. انني أحبك، ولم أُحب امرأة قبلك؟..

فقد نطق الضابط بهذا الاعتراف مراراً قبل ذلك، أما الآن فقد ردده بكل وضوح وجلاء...

ارتسمت في عيني البوهيمية نظرة بريئة سعيدة، لم تشعر بمثلها من قبل وهتفت وهي تنظر إلى سقف الغرفة الوسخة بكل جوانبها...

ـ آه!... يا إلهي!... انها اللحظة التي يُحسن بي أن أموت فيها... إنها أسعد دقيقة في حياتي!..

توقفت الفتاة طويلاً عن الكلام كأنها تستمتع بحلمها العذب... واخيراً أحست بيد الشاب تعبث بمنطقتها، فأفاقت من ذهولها، وصاحت به بحدة:

ـ ماذا تفعل؟

ـ لا أفعل شيئاً، بل قلت في نفسي أنه يجدر بك ان تلقي بهذه الثياب الغريبة جانباً طالما أنت معي.

فكررت كلامه، دون ان تفهم مبتغاه:

ـ طالما أنا معك؟

وعادت إلى حلمها وتأملاتها مرة أُخرى، ثم استفاقت وقالت فجأة:

ـ ألا تريد ان تلقنني تعاليم دينك يا فيبوس؟

فقهقه الضابط ضاحكاً وصاح:

ـ تعاليم ديني؟ فمن قال لك إنني قس؟ ولكن لماذا تريدين أن ألقنك تعاليم ديني؟

ـ لكي نتزوج؟

فقلب الضابط شفته باحتقار وقال:

ـ ولماذا نتزوج؟

فاختفى لونها الوهاج، وغشيت وجهها الجميل سحابة حزن..

فقال الشاب برفق، وقد ادرك تأثير كلامه:

ـ ما قيمة الزواج يا صغيرتي العزيزة؟ ألا يكون حب بغير زواج؟

كان الاسقف كلود فرولو يسمع كل هذا الحديث، وكان دمه قد استحال إلى رصاص مصهور، وكان يخيل للناظر إلى وجهه في تلك الآونة أنه امام نمر جائع يرى الكلب وهو يلتهم الوعل أمامه...

وبحركة فجائية مد الضابط يده، ومزّق الثوب عن كتفها، وأراد أن يلصق فمه على صدرها فصرخت:

ـ ماذا تفعل؟ دعني... دعني وشأني؟

ودفعته بيديها لتتخلص من ساعديه!...

وفي هذه اللحظة بالذات سمعت حركة على مقربة منها، فرأت شبحاً أسود ينقض من النافذة بسرعة البرق ويغمد خنجراً في ظهر الضابط... فأرادت ان تصرخ مستغيثة، ولم تستطع، لكنها أحست بالارض تغوص تحت قدميها، وبالكائنات تسبح أمام عينيها...

وقبل ان تفقد وعيها أحست بشفتين ملتهبتين كالحديد المحمى تلتصقان بشفتيها الباردتين...

الفصل العشرون

المحاكمة

كانت الساعة قد تأخرت ليلاً، وكان جرنجوار والبوهيميون في قلق شديد على ازمرالدا...

وانقضى شهر وازمرالدا لا تعود إلى دار العجائب؟ فأين هي؟..

وبذلت الجهود في كل صوب وجرى البحث عنها في كل مكان، لكن أحداً لم يعرف ماذا حل بها وبعنزتها؟

وفي أحد الايام، بينما كان جرنجوار يسير في شارع تورنيل، وهو حزين باله مشغول، ولا يدري ماذا يفعل، في حين تفكيره لا يتوقف عن تخيل موضع ازمرالدا وحالتها وماذا حلَّ بها... فرأى جمهوراً كبيراً حول أحد أبواب دار العدالة... فاقترب من شاب كان واقفاً في الباب وسأله:

ـ ما هو سبب هذا الازدحام؟

فأجاب الشاب:

ـ لا ادري يا سيدي، إنما يقال إنهم يحاكمون اليوم امرأة بتهمة قتل ضابط من ضباط جلالة الملك، كما يقال أيضاً أن في الامر شيئاً من أعمال السحر!..

وبسبب ذلك اضطر السيد دي شارمول النائب العام للتدخل لدى المحكمة الاكليريكية على أساس ان القضية تتصل بالدير والكنيسة..

دخل جرنجوار عبر الازدحام الطويل، وانطلق فوق سلم المحكمة... وما زال يسير وسط الخلق الكثير المتدافع بالمناكب إلى أن وصل إلى باب صغير يؤدي إلى القاعة الكبرى.

تمكن بسبب طول قامته أن ينظر من فوق رؤوس الخلائق المتزاحمة في المكان...

كانت القاعة مظلمة، لأن النهار كان قد أشرف على المغيب والضوء أصبح خفيفاً لا يكاد ينفذ من النوافذ حتى يتبدد في افق القاعة وفضائها الفسيح.

وكنت تشاهد الشموع المضاءة فوق الموائد والمناضد حيث جلس الكتبة منكبين على اكداس من الأوراق أمامهم على الطاولات وبين أيديهم...

وقد احتل الجمهور المزدحم الجزء الأمامي من القاعة..

وفي صدر القاعة البعيد قامت منصة القضاة، وقد جلس هؤلاء جامدين متجهمي الحسنات، عابسي الوجوه، والصليب معلق فوق رؤوسهم، ويرتدون لباسهم الرسمي الاسود...

فسأل جرنجوار شخصاً بجانبه:

- من هم هؤلاء الجالسون هناك كأنهم مجلس الأساقفة؟

فأجاب:

- هؤلاء الذين إلى اليمين هم مستشارون، أما أولئك الذين إلى اليسار فإنهم يشكلون قضاة التحقيق...

- ومن هذا الذي يجلس من فوقهم ويرتدي الثوب القرمزي؟.

- إنه الرئيس!..

- ومن هذا الدب الجالس عن يمينه؟

ـ إنه كبير كتّاب المحكمة...

ـ ومن هذا التمساح الذي إلى يساره؟

ـ هذا هو السيد شارمول النائب العام.

ـ ولكنني لست أرى المتهم، فمن يكون؟

فأجاب:

ـ المتهم إمرأة في ريعان الشباب.. وهي واقفة هناك لكنها مولية ظهرها نحونا!...

وفجأة ساد السكون، فتبين أن المحكمة بدأت تسمع إلى إفادات الشهود..

كان الشاهد الأول العجوز البدينة المترهلة الجسم، صاحبة المنزل الذي اجتمعت فيه الفتاة البوهيمية مع الضابط.

فقامت هذه المرأة بسرد كيف ذهب اليها الضابط والفتاة، وكيف نقدها الضابط قطعة من النقود أجراً لغرفة من منزلها..

ثم استطردت:

ـ وقد اخذت قطعة النقود... وقدمت للضابط والفتاة غرفة في الطابق الاول ثم تركتهما وحدهما.

ـ والعنزة؟..

ـ استغفر الله.. بل تركتهما والعنزة معهما.. ثم عدت إلى غرفتي واكببت هناك على عملي..

فجأة، وبعد وقت لا يمكنني تقديره سمعت صيحة منبعثة من ناحية الغرفة ثم سمعت صوت شيء يسقط على الارض!..

فهرعت فوراً إلى الغرفة، فوجدت الضابط صريعاً، والبوهيمية فاقدة الوعي،

والعنزة تثغو خوفاً وفزعاً!...

فصرخت مستغيثة وجاء رجال الشرطة وحملوا الضابط!..

ورفضت المرأة الكلام... يبدو أنها لم تكن تقوى على ذلك..

وتوقفت المرأة عن الكلام...

فسألها الرئيس بصوت رهيب:

ـ هل لديك أقوال أخرى تدلين بها أمام المحكمة؟

فأجابت:

ـ كلا يا سيدي... لدي ملاحظة بسيطة وهي انهم وصفوا لي المنزل في التحقيق على أنه بؤرة حقيرة وقذرة! وهذا أمر غير صحيح مطلقاً، وليس هناك في المنازل الاخرى القائمة فوق الجسر منزل أفضل من منزلي... أجل إنها منازل غير جميلة ولا حسنة المظهر ولكن...

فقاطعها الرئيس صارخاً!

ـ كفى... كفى... لا شأن لنا بهذا!.

ثم تكلم النائب العام شارمول فقال:

ـ إن أقوال هذه الشاهدة تتطابق تماماً مع أقوال الكابتن فيبوس دو شاتوبير...

وما أن سمعت المتهمة هذا الاسم حتى نهضت واقفة وظهر رأسها فوق رؤوس الجموع المحتشدة.

وانتاب جرنجوار ذعر رهيب حين رآها وعرف فيها ازمرالدا... والتفت اليها فوجدها شاحبة مضطربة!

ولقد كان عهده بها مرتبة، مرصعة بمشابك من ذهب...

كانت شفتاها صفراوين، وعيناها غائرتين... يا للأسف!..

لقد تحولت واصبحت مخلوقاً جديداً!...

وهتفت المتهمة بصوت محزن:

ـ فيبوس؟ ولكن أين هو؟ سادتي القضاة. اناشدكم الرحمة قبل أن تحكموا علي بالموت...

كل ما أريد معرفته هل فيبوس لا يزال حياً؟ اخبروني أرجوكم؟..

فصاح بها الرئيس صارخاً:

ـ لا تتكلمي أيتها المتهمة، فليس لنا بهذا شأن؟

وقالت وهي مشبكة يديها في لهفة المتوسل:

ـ أخبروني فقط أهو حي؟.. أناشدكم الله!..

فقال لها المدعي العام بخشونة:

ـ بما إنك تلحين إلى هذه الدرجة، فأعلمي أنه يجود بأنفاسه الاخيرة، فهل اطمأنت نفسك الآن؟..

وتهالكت ازمرالدا على مقعدها صامتة جامدة العين، حابسة صوتها ودموعها. ومن فرط شحوبها أصبحت أشبه بدمية من شمع...

وفجأة صاح الرئيس بالحاجب:

ـ أحضر الشاهد الثاني.

وفوراً اتجهت العيون نحو باب صغير، ففتح، وكم كانت دهشة جرنجوار شديدة عندما رأى عنزة جميلة مذهبة الحوافر والقرون وقد بدت عند الباب.

وقفت لحظة عند عتبة الباب ومدت رقبتها وكأنها تقف على صخرة تطل على سهل فسيح من تحته!..

وما لبثت أن قفزت فوق المنصة وراحت تثب على كاتب المحكمة.. قامت بعد

ذلك بقفزتين وسقطت على ركبتيها، عند قدم مولاتها جاثية جثو الولاء، مترجية سائلة كلمة طيبة منها أو تحية جميلة، أو ملاطفة من كفها...

إلا أن ازمرالدا بقيت جامدة، فلم تظفر المسكينة منها حتى ولو بنظرة حنان!..

فقال النائب العام محدثاً هيئة المحكمة:

ـ ننتقل الآن أيها السادة إلى استجواب الشاهد الثاني.

ولم يكن الشاهد الثاني سوى العنزة... إذ لم يكن أسهل في ذلك العصر من إتهام الحيوانات والسوائم والأنعام بأنها من عمل السحر والسحرة، وفي أيام شارلمان وغيره من ملوك العصور الغابرة، كان القوم يحاكمون الناس والبهائم معاً بأمثال هذه التهم الغريبة وما شابهها...

فقال السيد شارمول:

ـ إذاً تقمّص الشيطان جسد هذه العنزة وإذا لم تنفع في طرده جميع المحاولات التي حاولناها، لا يزال مصراً على عناده، فإننا ننذره من الآن بأننا سوف نطالب المحكمة بإصدار حكم الاعدام شنقاً..

وما أن سمع جرنجوار هذا الكلام حتى تصبب العرق البارد من جبينه، في حين تناول شارمول الدف الذي كان موضوعاً فوق المنصة فأمسك به في حركة خاصة أمام العنزة وراح يسألها قائلاً:

ـ كم الساعة الآن؟

فنظرت العنزة إليه نظرة ذكاء، وفهمت، ثم رفعت حافرها المذهب ودقت به الدف سبع دقات...

وكانت آنذاك الساعة فعلاً السابعة في تلك اللحظة..

وشاهد الجمهور ذلك فسرت في أوصاله رعدة خوف، ولم يتمكن جرنجوار من ان يتمالك نفسه أمام مثل هذا المشهد.

فصاح قائلاً:

- يسير هذا الحيوان نحو التهلكة، ألا ترون أنه لا يدري ما هو فاعل؟

هنا صاح الحاجب منبهاً إلى وجوب السكوت.

ثم عاد شارمول ليحرك الدف أمام العنزة، ويلقي عليها اسئلة مختلفة عن اسم اليوم والشهر والسنة.

وكانت تجيب عليها كما أجابت على السؤال الأول.

فقد رأى المشاهدون ذلك في الشوارع، ولطالما تلهوا بالفرجة إليها وتسلوا بمشاهدة ألعابها...

لكنهم ارتجفوا خوفاً وذعراً من هذه الحركات نفسها في ذلك الموقف الرهيب أمام المحكمة وفي قاعة القضاء..

فقد توهموا فعلاً أنهم أمام شيطان لا أمام العنزة نفسها التي ألفوا اللقاء بها في حلقات الشوارع وحلقات ميدان لاجريف..

أما الآن فالفتاة في قفص الاتهام.

إنها البوهيمية الحسناء التي طالما فتنت الجماهير في الشوارع برقصاتها وحركاتها وألعاب عنزتها..

لكنها استحالت في نظرهم الآن إلى ساحرة مخيفة ترتعد لها الفرائص وترتجف لها الأبدان!..

أما ازمرالدا، فلم تبدِ، في تلك اللحظة، أدنى إشارة، ولم تحفل بألعاب عنزتها، ولا برعيد القضاء، ولا بلعنات الجمهور وعبارات سخطه، إلى أن أخطروا إلى تنبيهها وإفاقتها من ذهولها؟

فتقدم جندي منها وهزها بقسوة كي تصغي إلى كلام الرئيس وهو يقول: أيتها

الفتاة! أنت من البوهيميات، وقد ألفت الأعمال غير المشروعة وتعمدت بالاشتراك مع عنزتك المسحورة قتل الضابط فيبوس دو شاتوبيير في ليلة ٢٩ آذار الماضي، مستعينة على ارتكاب جريمتك بأعمال السحر غير المشروعة، فهل أنت مصرة على الانكار؟

فنظرت إليه بعين متقدة وصاحت بصوت مخيف:

ـ أجل... إنني أنكرا..

قال:

ـ إذن كيف تدحضين هذه الأدلة التي تثبت جرمكما؟

فأجابت بصوت منخفض، ومتقطع:

ـ لقد أفدتكم من قبل إنني لا أدري، ولا أعلم... إن القاتل قس وراهب لا اعرفه، أنه مخلوق جهنمي يطاردني ويتعقبني من مكان إلى آخر... أيها السادة، رحمة بي!... فما أنا الاّ فتاة مسكينة...

فقاطعها الرئيس قائلاً:

ـ من سلالة البوهيمين... أليس كذلك؟

هنا إنبرى شارمول يقول بكل رفق:

ـ أرى إزاء اصرار المتهمة على الافكار، أن نلجأ إلى وسائل التعذيب.

فأجاب الرئيس:

ـ ليكن ذلك.

ولما سمعت ذلك انتابتها رعشة قوية.

إلا أنها نهضت من مقعدها ممتثلة إلى أوامر الجنود.

فسارت إلى باب صغير لم يلبث أن اغلق وراءها، وما أن اختفت حتى سمع الناس صوتاً حزيناً شاكياً مؤثراً، وكان ذلك صوت الفتاة المسكينة التي استوحشها

غياب صاحبتها عنها...

أخذ الجنود ازمرالدا وراحوا يهبطون بها سلماً ويصعدون بآخر، عبر دهاليز مظلمة يلزمها اضاءة المصابيح حتى في وسط النهار.

أخيراً ألقى بها الحراس في غرفة مخيفة المنظر، مستديرة الشكل، في الطبقة الأرضية من احد ابراج الدار وهي غرفة لا نوافذ فيها ولا أي نوع للاضاءة...

لم تكن هناك ضرورة إلى ضوء...

إذ كان في فجوة أحد الجدران، أتون يتأجج ناراً، وكان الاتون مرفوع الغطاء، وقد برزت منه قضبان من الحديد، كأنها اسنان محددة مدببة من نار تشتعل.

ورأت ازمرالدا، على اللهيب الأحمر آلات غريبة، لم تكن تعرف سبب وجودها أو الحكمة من ذلك.

كما رأت في وسط الغرفة مقعداً من الجلد قد علّق فوقه زنار مشدود إلى حافة متصلة بالسقف...

هكذا كان وصف غرفة التغذيب...

عند ذلك شعرت ازمرالدا بذعر لا يوصف، ووقف الجنود إلى جانب الجدار مشكلين صفاً واحداً، وكان في ركن من الغرفة طاولة جلس إزاءها كاتب كان قد وضع أمامه قلماً ومداداً وورقاً...

ودنا شارمول من البوهيمية وهو يبتسم لها ابتسامة رقيقة وقال:

- اجيبي يا بنيتي العزيزة، أما زلت مصرّة على الانكار؟

فأجابته بصوت خافت يكاد أن يسمع:

- أجل!...

فقال:

ـ إذن سنضطر مع الأسف إلى إكراهك على الإجابة بطريقة لم نكن نحب اللجوء اليها... فتفضلي بالجلوس فوق هذا المقعد.

والتفت إلى الجلاد وقال:

ـ أجلسها على المقعد يا نورفيري واغلق الباب،

فهز الجلاد رأسه وأجاب:

ـ إذا اغلقت الباب انطفأت النار.

فقال شارمول:

ـ حسناً دعه إذاً مفتوحاً.

وكانت ازمرالدا لا تزال واقفة.

فقد أخافها هذا المقعد الذي مرّ عليه العديد من الضحايا قبلها وقد تألموا كثيراً... من شدة التعذيب.

وقفت أمام هذا المقعد مشدوهة ذاهلة، شاردة اللب، وقد ملأ الخوف كل جوانب نفسها وقلبها...

وإثر إشارة من شارمول، انقض رجلان من اعوان الجلاد والقيا بها فوق المقعد...

وما أن لمس المقعد جسمها حتى شعرت بأن دمها قد تراجع في دورانه إلى قلبها، ثم اخذت تتلفت حولها في ذعر في كل جوانب الغرفة.

وتصورت أن أدوات التعذيب تسير في طريقها إليها وها هي تأتيها من كل الجهات...

وسأل شارمول من حوله قائلاً:

ـ وأين الطبيب؟

فأجابه رجل يرتدي ثوباً أسود قائلاً:

ـ ها أنذا.

فقال لها شارمول بلطف:

ـ إنني أسألك للمرة الثالثة يا فتاتي، أما زلت تصرين على الإنكار؟

فاحتبس صوتها...

ولكنها أومأت برأسها علامة الإيجاب...

فصاح شارمول:

ـ أتصرين على الإنكار؟ إن ذلك يؤسفني أشد الأسف، لكنني مضطر أن أؤدي واجبي:

والتفت إلى الجلاد فسأله هذا:

ـ بماذا نبدأ يا سيدي؟

فاطرف شارمول اطرافة الشاعر الذي يفكر في بيت شعر يناسب المقام، وأخيراً أجاب:

ـ ابدأ بعملية «الكيّ»...

فأيقنت ازمرالدا بأن اللّه والناس قد تخلوا عنها فاستسلمت لما يراد بها، وتركت رأسها ينحني فوق صدرها، واصبحت كأنها شيئاً جامداً خامداً لا روح فيه. وهي تنتظر بينها وبين نفسها أن تنجلي الحقيقة بطريقة من الطرق...

تقدم الجلاد نحوها وبقربه الطبيب في حين ذهب المساعدان يبحثان في الأتون عن الآلات المطلوبة.

أما الفتاة، التي كان تملأ الدنيا بهجة وسعادة، لم تكن في حالة تسمح لها سماع ارتطام هذه الآلات بعضها ببعض، إلى أن سرت في جسدها رعدة قوية...

وفقدت وعيها!...

لقد كان هذا النوع من «الكي» كافياً لتمزيق أي قلب يشاهد استعماله ما عدا قلوب رجال العدالة...

فهذه الفتاة المسكينة التي يراد لها أن تتعذب بكل هذه الآلات الجهنمية، لم تكن سوى مخلوقة ضعيفة رقيقة وهشة...

بل أنها مجرَّد حبة قمح آدمية أسلمتها العدالة البشرية إلى تلك الرحى الهائلة لتطحنها طحناً!... فكم سيكون عذابها؟

ثم بدأ المساعدان يكشفان عن إحدى ساقيها الجميلتين وقدمها الصغيرة البديعة الرقيقة، والتي طالما فتنت الجماهير في شوارع باريس وازفتها بخفتهما....

ووقف الجلاد ينظر إلى الساق الجميلة والقدم الناعمة، وهزّ رأسه في أسف!...

ولم يمر لحظة حتى أصبحت تلك القدم ضمن المحرقة الحامية، فانتبهت ازمرالدا من غشيتها على ألم لا يطاق...

فصاحت مولولة متحفزة للنهوض.

إرحموني!... إرحموني!...

وقفزت من فوق المقعد تريد أن تجثو على قدمي النائب العام، إلا أن قدمها كانت ضمن ذلك المقبض المصنوع من الخشب المتين والمبطن بالحديد المحمَّى على النار، فلم تتمكن من الوقوف، لكنها ارتمت على المقعد ثانية مقنعة أنه لا حول ولا قوة لها...

وأشار شارمول إلى الرجلين فوضعاها بشكل مناسب فوق المقعد وشدا حول خصرها النحيل، ذلك الزنار الجلدي المتدلي من السقف...

وتحول شارمول وقال برقته المألوفة:

ـ أسألك لآخر مرة، هل تعترفين بالجرائم المنسوبة اليك؟

ـ أقسم إنني بريئة.

ـ إذن كيف تفسرين الظروف والملابسات التي تحيط بالجريمة؟

ـ وا أسفاه سيدي! لا أدري!...

ـ أنت تنكرين من جديد إذن؟

ـ أجل، سيدي.

والتفت إلى الجلاد وقال له: إبدأ!...

وأدار الجلاد زنبركاً، فأخذ المشد يضيق حول خصرها شيئاً فشيئاً حتى صرخت المسكينة صرخة داوية تعجز كل لغات الأرض عن وصفها.

فصاح شارمول بالجلاد:

ـ كفى!...

ثم التفت إليها وقال:

ـ والآن هل تعترفين؟

فصرخت المسكينة قائلة:

ـ نعم، نعم، اعترف... فارحموني!...

ـ إنما يجب أن تعلمي أن اعترافك لا يرد عنك الموت.

فأجابت فوراً:

ـ أنا لا أطلب سوى الموت!

ـ أتعترفين بأنك تعملين بالسحر، وتتصلين بالشياطين والأرواح الشريرة؟ أجيبي.

فقالت بصوت يكاد ان يسمع:

ـ نعم...

وهل تعترفين بأنك شريكة الشياطين المتقمصة في جسد العنزة؟

ـ نعم...

واخيراً هل تعترفين بأنك بالاشتراك مع هذا الشيطان قد قتلت الكابتن فيبوس دو شانويير في ليلة ٢٩ آذار؟

فنظرت إلى الرجل وهي ذاهلة غير واعية:

ـ أجل!...

والتفت شارمول إلى الكاتب، وسأله:

ـ هل سجلت عليها هذا الاعتراف؟

ـ أجل يا سيدي!...

إذن حلوا وثاقها، لقد توصلت المحكمة إلى معرفة الحقيقة، واستراح ضمير العدالة؟ وهذا عزاؤنا أيها السادة، وسنشهد الفتاة بأننا استعملنا معها كل أساليب الرأفة، والرحمة؟...



الفصل الحادي والعشرون

إصدار الحكم

عادت ازمرالدا إلى القاعة ودخلتها صفراء اللون، تعرج في مشيتها، فاستقبلها الجمهور بهمهمة لا تخلو من الفرح، الفرح الذي يشعر به المشاهدون عند ارتفاع الستار في الملهى عن الفصل الأخير من التمثيلية...

وقد اشتركت العنزة بهذا الشعور أيضاً، فراحت تثغو وتحاول الوصول إلى صاحبتها.

عندما عادت ازمرالدا إلى القاعة الكبرى كان الليل قد أرخى سدوله وأصبحت الشموع لا تكفي لتبديد الظلام فظهرت قاعة المحكمة مظلمة.

اقترب شارمول من المنصة واعلن أن المتهمة اعترفت بجريمتها...

فتحول الرئيس إلى المتهمة وسألها:

ـ أحقاً أيتها البوهيمية، أنك اعترفت بما نسب إليك من جرائم السحر والقتل؟

فسمع صوتها وهي تنتحب في الظلام...

قالت:

ـ ليكن ما تشاءون... كل ما أرجوه هو أن تعجلوا بموتي.

ثم التفت الرئيس إلى شارمول وقال:

ـ أنا على استعداد لأن اسمع مرافعتك يا سيدي....

فأخرج من جيبه مجموعة من الأوراق... ثم أخذ يتلو مرافعته المسهبة وبصوت ثاقب... هنا نرغب في أن نوفر على قرائنا عناء الاصغاء إلى هذه المرافعة التي لم نفهمها... ولم تفهمها هيئة المحكمة ايضاً...

وسنكتفي فقط بالاشارة إلى العبارة الأخيرة التي ختم بها كلامه.

حيث صاح رافعاً صوته:

ـ أيها السادة...

ليس أدل على اشتراك الشيطان في هذه الجريمة من أنه جاء إلى هنا بنفسه ليسخر من هيئة هذه المحكمة المحترمة...

وعندما قال ذلك أشار باصبعه الى العنزة الصغيرة...

وكانت العنزة قد لاحظت حركاته.

فراحت تقلدها تقليداً بارعاً...

ولعل القراء يذكرون أنها فعلت مثل ذلك عدة مرات قبل ذلك، إلا أن عملها في هذه اللحظة كان برهانا لا يقبل النقض... وقد أحدث تأثيراً بالغاً في نفوس المشاهدين وحتى القضاة...

وفي ختام مرافعته طالب شارمول بأن يحكم على المتهمة بدفع تعويض مالي...

وبالتكفير عن إثمها علانية في كاتدرائية نوتردام تحكم بالاعدام شنقاً في ميدان لا جريف...

بعد ذلك جلس السيد شارمول، وتهامس القضاة فيما بينهم! واشترك الرئيس في هذا الهمس.

ثم قضى في أمر المتهمة بقوله:

ـ أيتها الفتاة البوهيمية...

في ظهر يوم يتحدد بارادة الملك ستنتقلين إلى كاتدرائية نوتردام في عربة مكشوفة، وأنت عارية الجسد إلّا من غلالة رقيقة وهناك تكفرين عن آثامك علانية، وأنت تحملين في يدك شمعة وزنها رطلان.

بعد ذلك يتم نقلك إلى ميدان لا جريف، وتعلقين هناك من عنقك حتى تصعد روحك إلى بارئها...

كما تعلق العنزة كذلك حتى تموت.

وليرحمكما الله!...



الفصل الثاني والعشرون

الاعتراف

في أساليب الهندسة في القرون الوسطى، كانت القصور والحصون والكنائس لا تعتبر كاملة البناء، إلاَّ إذا كانت سراديبها وأقبيتها الأرضية تعادل قاعاتها البارزة فوق سطح الأرض.

يخالف هذه الأساليب البناء القائم على أعمدة كما هو في الحال في كاتدرائية نوتردام...

فقد كانت «دار العدالة» من الأبينة التي نصفها يقع تحت الأرض. وهذا النصف هو عبارة عن قاعات صغيرة ضيقة لإيواء المجرمين المحكوم عليهم... أو لإجراء مختلف أنواع العذاب لهؤلاء المجرمين...

على المجرم الذي يوضع في أحدى هذه القاعات الصغيرة أن يودِّع النور والهواء وكل أمل في العودة إليهما... ذلك لأنه لا يبرح هذا القبر التحضيري إلا إلى المشنقة...

إلا أنه أحياناً، كان المحكوم عليه يترك ويهمل في إحدى هذه القاعات إلى أن يموت... فيقال عندئذ، بلغة العدال البشرية... لقد «نسي»

وفي هذه القبور المظلمة وضعت ازمرالدا... تلك الفراشة الرقيقة التي كان غذاؤها الهواء والضوء قبل كل أنواع التغذية...

ومن خوف رجال العدالة من أن تحطم هذه المخلوقة الضعيفة جدران السجن فقد وضعت ضمن أغلال ويداها مثقلة بالسلاسل الحديدية...

فارتمت الفتاة المسكينة على كومة من القش قرب جدار مظلم رطب ينضح منه الماء... وغصّتها دموعها...

وبلحظات خاطفة، مرت بخاطرها ذكريات سريعة متلاصقة تلي بعضها البعض.

فتذكرت فيبوس والشمس والهواء الطلق، والرقص، وشوارع باريس، والقس والدم والخنجر والعذاب...

فكان بعض هذه الذكريات حلماً سعيداً، وبعضها الآخر كابوساً مخيفاً...

ومنذ أن ألقيت في السجن لم تنم ولم تستيقظ بل وأصبحت لا يمكنها التمييز بين اليقظة والنوم ولا بين الحقيقة والحلم!...

هكذا أصبح التمييز عندها غير ممكن بين الليل والنهار... ففي أحد الأيام استفاقت البوهيمية التعسة من ذهولها على صوت صدر من ناحية الباب... فرفعت رأسها والتفتت فرأت نوراً ينبعث من الباب فبهر النور بصرها... فاضطرت إلى إغماض عينيها...

وعندما فتحتهما مرة أخرى... وجدت باب السجن قد أغلق وثم وضع المصباح على الأرض بالقرب منها...

وعندما أبصرت جيداً... رأت على ضوء المصباح شبحاً متستراً بوشاح أسود داخل هذا السجن المظلم... إلا أنها لم تتمكن من أن تتبين وجه الشبح، لأنه كان محجوباً بقلنسوة سوداء واسعة...

فأمعنت النظر بهذا الشبح... ثم تطلع الشبح إليها، ولم يصدر من أحدهما صوت... وكأنهما تمثالان قد التقيا في الظلام...

فلم يكن هناك ثمة دليل على وجود حياة في ذلك السجن ـ القبر، سوى إرتجاف ذبالة المصباح، وصوت قطرات الماء التي تتساقط من السقف والجدران وبشكل منتظم.

وأخيراً مزقت السجينة السكون بأن سألت:

ـ من أنت؟

فأجاب الشبح:

ـ إنني قس، جئت لأسمع اعترافك، وأطلب لك الغفران.

عندما سمعت الصوت، ارتجفت...

وتابع القس:

ـ هل أنت على استعداد؟

ـ لماذا؟

ـ لكي تموتي.

ـ ومتى أموت؟

ـ غداً..

فغمغمت:

ـ ولماذا كل هذا التباطؤ؟ لماذا لا أقتل اليوم؟ لماذا يطيلون عذاباتي؟

فأجاب القس بعد صمت قصير:

ـ يبدو أنك تعبة جداً؟

فقالت وهي تمسك قدميها بيديها، وأسنانها تصطك:

ـ فعلاً أشعر ببرد شديد...

فأجال القس بصره حوله وقال:

ـ بالفعل لا نور هنا، ولا نار!... هذا مخيف جداً!...

ـ أجل، كل أنسان له الحق أن يستمتع بالنور، فلماذا يزجون بي في الظلام؟...

فقال القس بعد صمت قصير:

ـ هل تعلمين لماذا وضعت هنا؟

فمرَّت يدها على جبينها وقالت:

ـ لقد كنت أعلم، أما الآن فأنا لا أعلم!...

وبكت فجأة كالطفل وصاحت:

ـ أريد أن أغادر هذا المكان يا سيدي، إنني أشعر ببرد شديد... وبالخوف!...

ـ إذن فتعالي معي!...

وأمسك بساعدها، فمرت في جسدها رعدة شديدة.

وسألت بخوف:

ـ من أنت يا سيدي،

عند ذلك رفع القس قلنسوته، ونظرت في وجهه، وعرفت فيه الرجل الذي طعن فيبوس.

فصاحت وهي تبسط ساعديها بينها وبينه، وكأنها تسعى كي تدفع عن نفسها خطراً حقيقياً قائماً...

ـ آه!... هذا أنت.

وغاصت على الأرض مرة أخرى، وسقط رأسها فوق صدرها...

وغمغمت قائلة:

ـ أجهز علي إذن!...

وانتظرت قليلاً كما ينتظر الحمل سكين الجزَّار...

بعد صمت قصير قال الأسقف:

- أتخافين مني؟

- فلم تجب...

وسألها مرة أخرى

- أتخافين مني؟

فقلبت شفتها وقالت دون أن ترفع نظرها إليه.

- أجل! إن الجلاد يسخر من ضحيته.

منذ أشهر وأنت تطاردني، وتخيفني... وبسببك أُعاني الآن هذا العذاب... وهذا الشقاء!... فأنت الذي قتلته... أنت من قتل فيبوس!... وأنا أدفع الثمن وأحاكم!.

ثم انفجرت باكية وصاحت:

- بربك قل لي من أنت أيها القس. وما الذي فعلته بك؟ ولماذا تحقد علي كل هذا الحقد؟...

فقال الأسقف:

- إنني أحبك.

فجمدت دموعها في عينيها... ونظرت إليه بذهول!...

ثم قال الأسقف:

- إصغي إلي... عليك أن تعلمي بكل شيء... سأقول لك ما لم أجسر على قوله من قبل الآن أو حتى لم أستطع قوله لنفسي.

لقد كنت سعيداً قبل أن أراك.

فتنهدت وغمغمت:

- وأنا كذلك

ـ أرجوك لا تقاطعيني... أجل... فقد كنت سعيداً، وكنت بريئاً وطاهراً، لا يستطيع أي إنسان أن يرفع رأسه بكبرياء أمامي كما أرفع رأسي.

وقد كان العلم هو كل شيء بالنسبة إلي...

ورغم أنني عقدت العزم على ألاَّ أعترف بنفوذ آخر عليّ غير نفوذ العلم.

ورغم أنني حاولت منذ صباي أن أسيطر دائماً على العواطف الجامحة التي تعصف في صدور الشباب.

وقد مرت بي أيام أوشكت فيها أن أفقد سلطاني على نفسي، ففي مثل هذه الأوقات كنت أسعى لأهذب نفسي بالصوم والصلاة والعبادة والانكباب على الدرس والتحصيل... والتجارب وغيرها...

فقد كنت أجد في ذلك كله منقذاً لي من التأملات الأثيمة التي تلقي بالشباب في أحضان الرذيلة.

وهكذا تمكنت من أن أقهر الشيطان... الذي استخدم سلاحه في محاربتي بأولئك النساء اللاتي يمررن أمامي في الكنيسة والشوارع والحقول... وما يلبث أن يتقلَّص ظلهن من مخيلتي بمجرد مرورهن وغيابهن...

أجل!... فقد استطعت أن أقهر الشيطان بسهولة...

ولكن واأسفاه! لم أتمكن من الاحتفاظ بالنصر...

والذنب في ذلك هو ذنب الأقدار التي شاءت أن يكون الإنسان أضعف قوة من الشيطان!...

ففي أحد الأيام...

توقف الأسقف لحظة وتنهد ثم استطرد: كنت واقفاً أمام غرفتي التي تطل على ميدان لاجريف... عندئذ رأيت مشهداً لم يخلق لتراه عيون البشر...

فقد رأيت في أحد أركان الميدان مخلوقة ترقص، ويا لها من مخلوقة! إنها

تصلح لأن تكون تمثالاً للجمال الكامل...

عيناها واسعتان ساحرتان، وشعرها يتألق تحت أشعة الشمس كأنه خيوط من ذهب...

وغلالتها رقيقة مزينة بالأزهار كأنها قطعة من الربيع، وقد ضاعت قدماها في زوبعة من الحركة الساحرة للألباب.

ذهلني هذا المنظر وملكت صاحبته حواسي...

ولم أتمكن من أن أحول بصري عنها للحظة...

ثم ورد على ذهني كل الشباك التي نصبها لي الشيطان من قبل، وأيقنت أن جمال هذه المخلوقة التي هي أمامي هو جمال لا يمكن إلا أن يكون قبساً من روح الله، فعبدت هذا القبس... أو شعلة من الجحيم!...

رأيتها امرأة ليست كسائر النساء اللاتي خلقن من طين، وإنما هي ملاك، ملاك ظلام ونار، لا ملاك رحمة ونورا!...

وحين ملأت هذه الخواطر ذهني حانت مني التفاتة فرأيت بالقرب من الراقصة عنزة صغيرة...

وبما أنني أعلم أن العنزة هي الحيوان الذي يلازم الساحر دائماً... فقد زاد يقيني أنك فخ ينصبه لي الشيطان لضياعي...

عند ذلك... أيقنت من وجود الفخ وآمنت به!...

ولما انتهى الأسقف من ذلك، نظر إلى ازمرالدا ثم استطرد ببرودة:

ـ وما زلت على رأيي، وأؤمن به...

وهكذا بدأ سحرك يفعل ما فعله في نفسي، فدار عقلي مع دوران جسمك الشهي وأنت ترقصين...

وبذلك أفلت من يدي زمام نفسي، فشعرت بمثل تلك الغيبوبة الممتعة التي

يشعر بها الإنسان، وهو يموت في الثلج...

وعندما سمعتك تترنمين بأغنية... سحرني صوتك وأثر غناؤك في نفسي أشد التأثير فكان أكثر سحراً من رقصاتك...

ـ أردت أن أهرب... ولكنني شعرت وكأنني سمِّرت بالأرض... فبقيت في مكاني رغماً عن إرادتي...

فأصبحت قدماي كأنهما قطعة من الثلج... أما رأسي فكان أتوناً تستعر فيه النيران...

أخيراً رحمني الله بمشيئته!

ذلك عندما توقفت عن الغناء، ومن ثم رأيتك تنصرفين... عندها سقطت في مقعدي كما يسقط التمثال...

تنهَّد الأسقف قليلاً ثم استطرد:

ـ ومنذ ذلك اليوم... ملكني شعور كنت أعرف أنه غريباً عني فلجأت إلى الدواء الذي كان يشفيني من معاناة الشباب. ولكن بدون جدوى

ثم لجأت إلى الكنيسة والكتب والتجارب العلمية! ... ولكن بدون جدوى!... وهل تعلمين يا فتاة ماذا كنت أرى بين عيني وبين الكتاب المفتوح أمامي؟

ـ كنت أراك...

كنت أرى ظلك وأنت ترقصين...

وذلك كما يرى الإنسان تلك الحلقات المظلمة التي ترقص أمامه حين يبهره نور الشمس...

وهل تعلمين كيف بقي صوتك يرن في أذني؟

وكم رقصت قدماك فوق كتبي؟ ... وعلى طاولتي؟

فوددت أن أراك مرة أخرى... وأن أتعرف إليك كي أتحقق من أنك تمثلين

الصورة الرائعة التي تملأ ذهني!

وورد على فكري أن أتمنى رؤيتك مرة أخرى على أمل أن أجد فيك نقصاً يشوه الصورة التي علقت في ذهني في بادىء الأمر أي في النظرة الأولى!...

فأخذت أبحث عنك... فوجدتك ورأيتك!...

وعندما رأيتك للمرة الثانية، وددت أن أراك آلاف المرات... وأن أراك دائماً!...

وهكذا نقلتني من الهدوء والاستقرار في أعظم كاتدرائية في باريس إلى شرير مثلك، فأصبحت أتعقبك في الأزقة وأكمن لك في أركان الشوارع، وأبحث عنك في كل مكان... وكنت أراك حتى على أدراج الكاتدرائية وعلى أبراجها...

بعد ذلك قررت أن أفحص نفسي كما يفحص الإنسان حشرة... فاكتشفت بأنني مريض بك مرضاً لا شفاء منه...

وعندما علمت أنك بوهيمية، ولم يبق عندي شك في أنك ساحرة، وأخذت أعمل للتخلص من سحرك...

فاستصدرت أمراً يمنعك أنت وسواك من الرقص في الميدان أمام الكاتدرائية... فكان رجائي ألا أراك بعد ذلك فأنساك...

إلا أنك ضربت بأوامر الشرطة بعرض الحائط فترددت على الميدان...

عند ذلك خطر لي أن أختطفك...

فعزمت ذات ليلة أن أنفذ هذا الخاطر، وكدت أنجح لولا تدخل ذلك الضابط اللعين...

وكان ما كان من محاكمة كازيمودو...

أيقنت بعد تلك الليلة أنني ملعون في الأرض، وفي السماء...

وتعلمت أيضاً أمراً آخر:

عندما يبدأ الإنسان بعمل الشر، فإن من الجنون أن يقف في متوسط الطريق... فغيرت خطة عملي.

واعتقدت في حال اتهمتك بالسحر وتمكنت من زجك في السجن، فإنك تصبحين في قبضة يدي! ويصبح باستطاعتي في كل لحظة أن أوقف الإجراءات التي تتخذ ضدك...

وذلك لأن قضيتك تمت إلى الدين بصلة!...

ولكون المدعي العام صديقي.

ولكن الأقدار كانت أقوى مني...

وحدث أن شاهدتك تسيرين في رفقة ذلك الضابط...

فتبعتكما... وأنت تعلمين ما حدث بعد ذلك...

وصمت طويلاً!...

فغمغمت بصوت حزين:

ـ أواه يا فيبوس.

فأمسك الأسقف ساعدها بعنف وصاح!...

ـ لا تذكري هذا الاسم، لا تذكري هذا الاسم أيتها التعسة... إنه اسم الرجل الذي ضيعنا معاً... أنا أشعر بأنك تتألمين، وأعلم أن الظلام هنا يعمي عينيك، ولكن لا أشك من وجود بصيص من النور لا يزال يضيء أعماق نفسك، أما أنا فإنني أحمل بين جنبي سجناً أشد من هذا السجن ظلاماً وبرودة.

ـ وهل تدركين كم عانيت يا فتاة؟

فقد شاهدت محاكمتك، وشهدت تعذيبك... كما كنت ألاحقك حتى وأنت ممدة على الطاولة ـ طاولة العذاب...

كما رأيت قدمك الصغيرة التي وددت ألف مرة أن أقبلها قبل أن تتعرض لأي

عذاب، قدمك الصغيرة هذه التي داست على سعادتي فهشمتها!... وعلى قلبي فحطمته!...

أجل... كنت هناك، ورأيت قدمك الصغيرة في تلك الآلة الجهنمية...

وعندما سمعتك تصرخين من الألم والعذاب... قمت بطعن صدري بخنجر معي!...

وكشف عن صدره وقال:

- أُنظري... إن صدري لا يزال يدمي!...

فإذا هو ملوث بالدم

وصعدت من فم الفتاة صرخة ذعر!...

لكن الأسقف استطرد:

- إرحميني أيتها الفتاة!... فأنت تتوهمين أنك أشقى مخلوقة على سطح الأرض، إلا أنك لا تعرفين الشقاء بمعناه الصحيح... الشقاء هو ما أعانيه أنا بسببك!...

صمت قليلاً ثم أكمل:

الشقاء الحقيقي أن يحب الرجل إمرأة، وأن يكون قساً، وأن يكون مكروهاً من المرأة التي أحبها لا بل عبدها...

الشقاء الحقيقي أن يحب الرجل بكل قوى كينونته، ويصل إلى حالة يشعر بها أنه يتردد في أن يجعل من دمه وحياته قرباناً لهذا الحب...

الحب هو أن يضحي دون أي أسف بسعادته في الدنيا وفي الآخرة من أجل ابتسامة واحدة... أو كلمة حلوة واحدة أو التفاتة حب، أو شعور مماثل... من قبل المرأة التي يحبها!...

الشقاء الحقيقي، ألاّ يكون الرجل ملكاً أو امبراطوراً، أو ملاكاً، حتى يضع

تحت قدمي المرأة التي يحبها عبداً عظيم القدر...

ويحصل الشقاء عندما يرى الرجل المرأة التي يحبها تضع كنوز حبها وجمالها، وطهارتها تحت قدمي إنسان آخر...

وهذا الإنسان الآخر ليس أجدر منه بحبها...

فعل تعرفت إلى مدى العذاب يا فتاة؟ فعذابك لم يكن شيئاً أمام العذاب الذي يشعر به رجل يعاني من الحب والغيرة واليأس؟

رحمة بي يا فتاة، خففي قليلاً من قسوتك، أو إذا أردت على الأقل عذبيني بإحدى يديك وامسحي آلامي باليد الأخرى...

رحمة بي... رحمة بي...

وعفَّر جبهته تحت قدميها...

استمعت الفتاة إليه بكل تيقظ... ونظرت إليه، حتى إذا توقف عن الكلام وهو متعب لاهث الأنفاس!

لكنه سمعها ترد بصوت خافت:

ـ أواه يا فيبوس!...

فصاح الأسقف، وهو لا يزال مستلقياً علي يديه وركبتيه!...

ارحميني يا فتاة!... وإذا كانت في قلبك ذرة واحدة من الرحمة، فأضرع إليك ألا ترديني... وتطرديني خائباً!...

فأنا أحبك وأصبحت شقياً بسبب هذا الحب... وهذا الاسم الذي يتردد على شفتيك إنما يمزق شرايين قلبي.

واعلمي أن كل ما فعلته من خير أم من شر إنما فعلته من أجلك وفي سبيلك... فقولي لي كلمة واحدة نسعد بها معاً... وإذا قلت هذه الكلمة ساعدتك على الفرار، وأفر معك، ونبحث لأنفسنا عن وكر نحيا به بين الأشجار وفي الغابات حيث الحرية

والشمس والهواء!...

أجل... نعيش معاً في الهواء الطلق... وتحت أشعة الشمس المشرقة؟...

ألا أن ازمرالدا ضحكت ضحكة مرتفعة ثاقبة، ثم قالت:

ـ انظر إلى يديك، يا أبت! ألا ترى أن أصابعك ملوثة بالدماء؟...

فصاح بكل قواه:

ـ نعم! اهزئي بي بقدر ما شئت، إنما أنصحك بألاّ تضيعي الوقت، لا تنسي أنك ستشنقين غداً، وقد نصبت لك المشنقة، فهل فهمت ستشنقين غداً!...

آه! يا إلهي! يجمد الدم في شراييني كلما تصورتك محمولة في الطريق إلى ساحة الإعدام، اغفري لي، اغفري لي! إنني لم أشعر يوماً بأنني أحبك كما أحبك الآن، فتعالي معي، ودعيني أساعدك على الفرار... وبعدها سيكون لديك متسع من الوقت كي تحبيني بعد أن أنقذك، بل لك أن تستمري على بغضك لي، فقط تعالي معي، وانقذي نفسك وانقذيني! انقذي زيادة عذاباتي، ففي آخر المطاف لا تزداد عذاباتي إذا بقيتي حية...

ثم أمسك بها فجأة، بحركة جنونية، كأنما يهم بأن يجتذبها معه.

إلا أنها نظرت إليه بإمعان، ثم سألته:

ـ ماذا حدث لفيبوس؟

فترك ساعدها وصرخ بشكل جنوني:

ـ أنت لا تعرفين الرحمة مطلقاً!

فرددت بكل برودة:

ـ ترى، ماذا حدث لفيبوس.

فأجاب الأسقف:

لقد مات!

فغمغمت بصوت منخفض:

ـ مات؟ وأنت تريدني أن أعيش؟

إلا أنه لم يسمعها، ذلك لأنه استطرد كمن يتحدث إلى نفسه.

ـ أجل... لقد مات لأنني طعنته بكل قوتي، ولا بد أن يكون الخنجر قد مزَّق قلبه الدنس.

فانقضت عليه ازمرالدا كاللبوة الغضبى، وصاحت وهي تضرب صدره بيديها وصرخت به...

ـ ارحل! ارحل! أيها القاتل! أيها الوحش، إذهب ودعني أموت، وليسقط دمنا على رأسك وليكن وصمة عار وخطيئة مميتة لك في الدنيا وفي الآخرة!...

وتأتي لتريدني أن أكون لك؟ أبداً لن يحصل ذلك، لن يجمع بيننا مكان حتى ولا في الجحيم!...

فنظر إليها بائساً وصاح بغضب حاد:

ـ قلت لك إنه مات، وأنت هل تحبين الموتى؟

إلا أنها لم تسمع هذا التعبير الأخير لأنها دارت حول نفسها، وسقطت على الأرض فاقدة الوعي...


الفصل الثالث والعشرون

هل يتنفذ الحكم؟

في صباح اليوم التالي، سارت المركبة بالبوهيمية نحو ميدان لاجريف... وبينما كانت الحسناء تخطو خطواتها الأخيرة نحو المشنقة، بقيت محافظة على فتنتها وجمالها!

وكانت عيناها السوداوان الساحرتان تبديان أكثر اتساعاً خاصة بعد أن أصاب وجهها النحافة وجسمها الهزال.

ولم يكن هناك ثمة ما يلفت النظر إليها غير وجهها الساحر... ذلك لأن جسمها الصغير كان يهتز اهتزازاً عنيفاً مع كل حركة من حركات المركبة في الشارع الكثير الحفر...

بقيت عيناها في حالة صفاء لا يخشيان الموت ولا المصير الذي ينتظرها إلى أن وقع نظرها على منزل المركيزة دو جويد لورييه، عندئذ صعدت إليها دمعة تجمَّدت في مآقيها، وبقيت هناك لا تتحرك!...

في الوقت المناسب وصلت المركبة فاخترقت الجموع الغافرة وسط هتاف السرور...

والحقيقة تقال... إن كثيرين من الحاضرين وممن راقهم أن يشهدوا منظر إعدام إحدى الساحرات من البوهيميين، شعروا بالأسى والشفقة عندما رأوا جمال المتهمة،

وحسنها ممزوجاً بالحزن والأسى على نفسها وعلى حبيبها!...

وصلت المركبة إلى باب الكاتدرائية ووقفت هناك...

وصمتت الجماهير، وتطاولت الأعناق... لترى ماذا سيحصل؟...

فتح باب الكاتدرائية!

فامتلأ جو الميدان بتراتيل يقدمها القسس بأصواتهم الخشنة.

ورأت ازمرالدا داخل الكاتدرائية المظلم، فتحركت شفتاها الشاحبتان وكأنها تبتهل في سرها إلى ربِّها!...

تقدم إليها الجلاد وحل وثاقها، وأمرها أن تهبط من العربة، ففعلت وصعدت درجات السلم حافية القدمين، تتبعها عنزتها وهي تثغو بصوت حزين مؤلم!...

وقف القسس عن الترتيل... فاقترب أحد رجال الكنيسة فوضع في يد الفتاة شمعة طويلة وثقيلة... كما جاء في الحكم...

ثم خرج من الكاتدرائية موكب من القسس لا يستهان به، مما لفت عددهم أنظار الجمهور...

لكن ازمرالدا لم تشاهد من أولئك القسس سوى رئيسهم الذي أقبل في طليعتهم...

فعندما رأته، مرت في جسدها رعدة قوية... ذلك لأنها عرفت فيه الأسقف الذي كان علة مصائبها!...

وأشار الأسقف إلى الجنود الذين يتبعونها... بالتراجع

فنكصوا على أعقابهم... وبدون تردد!...

فتركوها وعنزتها فوق إحدى درجات السلم.

لكن ازمرالدا لاحظت أن الأسقف ـ رغم موقفها الهائل غير الآبه بالموت، فإنه

ينظر إلى جسدها بعينين يتألق فيهما بريق الحب... والغيرة... والحقد...

ثم اقترب منها الأسقف وقال بصوت مرتفع:

ـ أيتها الفتاة البوهيمية... هل ابتهلت إلى الله كي يغفر لك جرائمك وآثامك؟...

ثم انحنى نحوها كأنه يسعى ليسمع جوابها...

وهمس بصوت منخفض:

ـ أتكونين لي؟ لا يزال في استطاعتي أن أنقذك!...

فنظرت إليه بإمعان، وقالت بحدة:

ـ إغرب عن وجهي... وإلا فضحتك...

فارتسمت على شفتيه ابتسامة مقيتة وقال:

ـ إذا تكلمت فلن يصدقك أحد، وستنالين العار والخذلان... أجيبي بسرعة هل تكونين لي؟

ـ ماذا فعلت بفيببوس؟

ـ إنه مات

فأجابته بكل بساطة:

ـ سألحق به!...

فهتف الأسقف بصوت رهيب:

ـ موتي!... إذن فلن ينالك أحد...

ثم دار حول نفسه!

ودخل الكاتدرائية، ورأسه غائص فوق صدره...

وبقيت ازمرالدا واقفة في مكانها بانتظار ما يراد بها...

قام أحد القسس، ونبه الجلاد على أن الأسقف أكمل واجبه...

عند ذلك أمر الجلاد رجاله بشد وثاق المحكوم عليها...

وفي هذه اللحظة تحول وجهها نحو منزل المركيزة، وتعلقت عيناها بالشرفة!

وفجأة رأت... ويا لهول ما رأت...

فقد وقع بصرها على فيبوس واقفاً هناك بين فتاتين يشاهد مصرعها...

رأته فعلاً كما اعتادت أن تراه... منتصب القامة... مرفوع الرأس...

فتوقف قلبها عن الحركة، وتدفق الدم في عروقها بشدة كأنه يريد أن يمزق شرايينها تمزيقاً!...

شعرت بالسرور بادىء ذي بدء...

لكنها عادت وشعرت بالدهشة والاستنكار...

إذن، فقد كذب عليها القاضي!...

يا إلهي!...

وكذب عليها الأسقف أيضاً...

هذا فيبوس واقفاً أمامي... واقفاً في المقصورة بثيابه الأنيقة والسيف يتدلى من منطقته...

فصاحت بكل قواها:

ـ فيبوس... فيبوس!...

وأرادت أن تبسط ساعديها نحوه، ولكن ساعديها كانا مشدودين بوثاق وراء ظهرها.

مما لا شك فيه أن الضابط الشاب سمع صوتها، لأنه انحنى... وقال كلاماً للفتاتين اللتين معه...

وما لبث أن انصرف الثلاثة عن الشرفة.

وصاحت ازمرالدا

- فيبوس... ألا تسمعني؟

وجن جنونها!...

ثم أخذت تفكر فقالت:

ألم يقضوا علي بالموت لأنني قتلت الكابتين فيبوس دو شاتربير؟

وها هو الضابط حي يرزق، ولماذا يسوقونني الآن إلى المشنقة؟

ازداد حزنها حزناً وتعاستها شقاء... إذ كان بإمكانها أن تحتمل ما حل بها بأمل واحد... هو أنها تلحق بفيبوس عما قليل!...

أما الآن... وهو حي!...

لم يكن بإمكانها أن تتحمل هذه الصدمة العنيفة التي أضيفت إلى كل مآسيها، فسقطت على الأرض فاقدة الوعي...

* * *

من الناحية الآخرى من أوجه الكاتدرائية ومن الميدان، لم يستطع أحد أن يرى المخلوق الغريب الشكل الكامن بين تماثيل الشياطين القائمة فوق باب الكاتدرائية، وهو يشهد عن كثب بعينه المفردة آخر فصل من فصول المأساة!...

حتماً لم يلتفت أحد، ولو رآه البعض فإنهم لم يعرفوه، وربما حسبوه أحد هذه التماثيل...

هذا المخلوق الغريب هو كازيمودو أحدب نوتردام، فلم تفته لا صغيرة ولا كبيرة مما يقع حوله.

وكان مدركاً من الوهلة الأولى ما سوف يحصل للفتاة، فجاء بحبل طويل كثير العقد وشد طرفه بأحد الأعمدة الصغيرة...

ولما هوت ازمرالدا على الأرض رآها... ثم رأى الجلاد يشير إلى اثنين من أعوانه، فأدرك أنه يأمرهما بحملها ووضعها في العربة.

فهم الأحدب الأوامر وما يحصل حالياً...

فأمسك الحبل، وأحاطه بساعديه وساقيه، ثم انزلق به على جدار الكاتدرائية كما تنزلق قطرة الماء على لوح من الزجاج.

وما أن هبط على الأرض حتى وضع نفسه فوق مساعدي الجلاد وصرعهما بضربتين من قبضته الهائلة...

وبأسرع من البرق حمل البوهيمية على ساعده كما تحمل الطفلة دميتها.

فوثب إلى باب الكاتدرائية، والفتاة مرفوعة فوق صدره، وهو يصيح بصوت مثل قصف الرعد!...

فصاح الجمهور في الميدان بأصوات مدوية:

ـ نجت... إنها نجت... إنها الآن في مأمن!...

فدوّت عشرات الأيدي بالتصفيق...

فلمعت عين كازيمودو سروراً وغبطة!...

واستفاقت ازمرالدا من إغمائها على دوي التصفيق، وهتافات المشاهدين!...

وفتحت عينيها ونظرت إلى الأحدب، ثم عادت وأغمضتهما، وكأنما روعها مشهد منقذها...

وقف الجلاد وأعوانه مشدوهين... لأن المحكوم عليها قد أصبحت في مأمن بين جدران كاتدرائية نوتردام... ذلك لأن العدالة البشرية لا تجسر على دخول الكاتدرائية العظيمة!...

وفي غضون لحظة وصل كازيمودو ووقف في باب الكاتدرائية الهائل، وقدماه الضخمتان ثابتتان في الأرض كالأعمدة الرخامية، ورأسه الكبير مرفوع كرأس الأسد، والفتاة بين يديه مترهلة كأنها ثوب قديم.

إلا أنه كان يحملها برفق كي لا تنزعج ولا تتهشم... فشعر بأن هذا الهيكل الرقيق الحساس لم يخلق كي تحمله يدان خشنتان كيديه...

وكان يخيل للناظر إليهما أن هذا الأحدب الضخم لا يجسر على أن يمسها حتى بأنفاسه!...

وفجأة أحاطها بساعديه وأدناها من صدره البارز كما تضم الأم وحيدها.

ونظر إليها بعين تسيل منها الرحمة والشفقة والحزن، ثم رفع هذه العين، فإذا بها لمعان كوميض البرق!...

كانت الجماهير تغص بالنساء فرأين هذا المشهد...

فمنهن من ضحكن ومنهن من بكين...

وضرب الرجال الأرض بأقدامهم بحماسة شديدة، ذلك لأن كازيمودو، في ذلك الموقف بدا جميلاً حقاً.

أجل... لقد كان ذلك اللقيط الدميم المنبوذ جميلاً في تلك الدقيقة...

كما شعر هو بأنه قوي وعظيم...

وذلك لأنه انتزع من العدالة البشرية فريستها، وانتقم لها من ممثلي هذه العدالة من شرطة وجلادين.

فنظر بفخر إلى جميع هؤلاء الذين تمكن بحقارته وبإرادة الله، أن يقهرهم ويردهم على أعقابهم...

فكان الموقف مؤثراً إذ استطاع هذا المخلوق المتناهي في الدمامة والبشاعة أن

يفرض حمايته على هذه الحسناء المحكوم عليها بالموت.

وقد كان مؤثراً للغاية أن يجتمع على عتبة الكاتدرائية وفي حماية بيت الله هاتان الضحيتان من ضحايا الطبيعة والمجتمع...

فرح كازيمودو بانتصاره بضع دقائق وتباهى أمام الجماهير، ثم قفز إلى داخل الكاتدرائية وحمله الجميل بين يديه...

نظر الجمهور بإعجاب إلى أعمال البطولة والجرأة التي قام بها كازيمودو، وهي من المشاعر المتأصلة في نفوس الناس...

لذلك قاموا بتتبعه بأبصارهم إلى أن توارى في الظلام داخل الكاتدرائية وقد شعروا بعد ذلك بالأسف لأنه توارى بهذه السرعة.

وصل كازيمودو إلى دهليز، ارتفعت على جوانبه تماثيل ملوك فرنسا... فأخذ يعدو في الدهليز كالمجنون...

وهو يصيح:

ـ نجت... نجت...

فسمع الجمهور في الخارج صدى صوته!

فصفقوا له طويلاً...

وبعد مرور دقائق،

شاهد الجمهور أحدب نوتردام يثب بين أبراج الكنيسة، وحمله الثمين بين يديه، وهو لا يزال يردد بصوت لا يشبه أصوات البشر.

ـ نجت... نجت...



الفصل الرابع والعشرون

عاصفة في جمجمة

حين أنقذ كازيمودو عنق البوهيمية من حبل المشنقة، لم يكن كلود فرولو موجوداً في الكاتدرائية.

فكان قد انصرف من باب خلفي للكاتدرائية كيلا يشهد بأم عينه مصرع المرأة التي أحبها بكل جارحة من جوارحه.

سار في الشوارع هائماً على وجهه، وعلى غير هدىً، مبتعداً بأسرع ما يمكن عن الميدان الذي كان الناس يهرولون مسرعين لبلوغه...

فسمع من بعيد دوي التصفيق، وأصوات الهتافات، فاعتقد أن الحكم قد نفّذ في البوهيمية.

فسد أذنيه بأصابعه وأسرع الخطى!...

واستمر يهرول تارة، ويعدو تارة أخرى، إلى أن خرج من باريس ورأى المدينة المقيتة مترامية وراءه، وقد أطلت عليه بقصورها وقلاعها وأبراجها الشاهقة كأنها عمالقة تتبعه ببصرها...

وفجأة وجد نفسه بين الحقول... بعيداً عن ضجيج المدينة... فأبطأ في مشيته... والتقط أنفاسه... وهنا تزاحمت في رأسه طائفة مخيفة من الأفكار والتأملات...

وتذكر الفتاة الحسناء الجميلة التي قضت عليه، فأنسته العلم والتفكير والتجارب العلمية وكل اهتماماته الأولى...

كما قضت على نفسها وعلى مرحها والمرح والسرور التي كانت تملأ بهما نفوس الباريسيين...

تصور هذه الفتاة الحسناء... هذه الزنبقة الطاهرة...

هذه المخلوقة الشقية التي لم يكن يجرؤ أحد على الاقتراب منها دون أن يرتجف... والتي كانت سعادته في الدنيا والآخرة مرهونة بنظرة واحدة منها...

تصور هذه الفتاة التي أصبح جسدها الآن نهباً لأنظار الجماهير المحتشدة في ميدان لاجريف... ومجملهم من الرعاع والغوغائيين واللصوص...

فدق صدره بيديه... وبكى غضباً... كيف لم يستطع من إنقاذها وإنقاذ الموقف؟...

واسترسل في الأحلام فصور لنفسه السعادة التي كان يمكن أن تكتب له في الحياة لو لم يكن أسقفاً، ولو لم تكن الفتاة بوهيمية، أو لم يدخل فيبوس بينهما...

ولما صوَّر لنفسه هذه السعادة ذاب قلبه حنيناً ويأساً...

وعندما عاد إلى أعماق نفسه ونظر بعين الطبيب الذي يفحص مريضه... رأى في قرارتها كراهية ومرارة وخبثاً...

لكنه عاد ولاحظ في التشخيص أن هذه الكراهية والمرارة والخبث ليست إلا ثمرة ردات فعل للحب المردود، وأن هذا الحب الذي هو مصدر الفضائل في نفس كل إنسان، قد أصبح في نفسه ـ وهو أسقف ـ مصدراً للكبائر والأنانيات...

لكنه لم يأسف على ما قام به من أفعال، ولم يشعر بالأسى ووخز الضمير، وأحس بأنه على استعداد لأن يعيد ما أبرم فعلاً...

ذلك لأنه يؤثر الف مرة أن يراها بين يدي الجلاد، من أن يراها بين ساعدي رجل سواه...

ولما تذكر الجلاد، عادت إلى مخيلته صورة المشنقة، وتصور عقدة الحبل وهي تطبق على ذلك العنق الجميل الضعيف... فتصبب جبينه بالعرق واجتذب شعره بيديه... وقفز بعيداً وكأنه يريد إبعاد المشهد عنه وعن مخيلته!...

هكذا أكمل معاناته...

فاستمر فراره من الطبيعة ومن الحياة، ومن نفسه، ومن الإنسان، ومن الله، ومن كل شيء حتى السماء...

فقد كان يهرول تارة ويرتمي على الأرض تارة أخرى، ويمسك برأسه أحياناً ويهزه بعنف وكأنه يحاول انتزاعه من بين كتفيه...

وما أن أقبلت الشمس على المغيب، ونظر في أعماق نفسه من جديد، أيقن أنه أصبح مجنوناً أو شارف على الجنون...

فزوبعة الحب هذه التي هزَّت كيانه وعصفت في صدره وجمجمته لم تترك في عقله خاطراً واحداً سليماً...

أخيراً لم تبق له شيئاً بارزاً...

ما عدا شبح ازمرالدا، وصورة المشنقة...



الفصل الخامس والعشرون

الملجأ

في القرون الوسطى، انتشرت في كل مدينة ملاجىء مقدسة يلجأ إليها الناس من جبروت القوانين الجنائية وطغيانها. وقد استمرت هذه الأمور حتى عهد لويس الثاني عشر...

اتخذت هذه الملاجىء أشكالاً متنوعة لكنها متشابهة، فقد كانت أشبه بجزر لا تصل إليها العدالة الإنسانية...

ففي حال بلغها أي إنسان نجا من العقوبة مهما كانت...

تحددت مراكزها بشكل عام بالكنائس وقصور الملوك والأمراء... تلك هي الأماكن التي تستمتع بهذه الحصانة، وضمنها يصبح الإنسان بمأمن من العقاب.

إلا أنه يفترض باللاجىء ألاّ يبرح مكانه، أو يقع في يد العدالة التي لا تكف عن ترصده كما يترصد الحيوان الوحشي فريسته...

رغم اعتماد هذا الميثاق الذي لم يكتب كقانون أو نظام أو دستور أو ما شاكل... فقد عرفت حالات انتهكت فيها حرمة هذه الملاجىء، إلا أن ذلك لم يكن يحدث إلا نادراً وبأمر من البرلمانات في الدول... إذاً يعتبر البرلمان السلطة الوحيدة التي يحق لها أن ترفع الحصانة عن المجرم حتى لو لجأ إلى قصر الملك نفسه...

وقد بنيت في كل كاتدرائية أو كنيسة قاعة خاصة لإيواء المجرمين اللاجئين،

وفي كاتدرائية نوتردام كانت هذه الغرفة موجودة فوق السطح بين أبراج الأجراس...

حمل كازيمودو ازمرالدا إلى هذه الغرفة بالذات وهي لا تزال فيما يشبه الإغماء والذهول، بعد أن رأت وجه منقذها، إلا أنها شعرت وهي مغمضة العينين بأنها تسبح في الفضاء...

لكنها كانت تسمع بين الحين والحين ضحكة خشنة... أو صيحة عالية...

أخيراً عندما صمت وفتحت عينيها رأت باريس مترامية تحتها، ورأت فوقها وجه كازيمودو المخيف...

وعندما وصل بها كازيمودو أخيراً إلى قاعة الكنيسة المخصصة للمجرمين، مددها على أرض الغرفة، وشرع في حل وثاقها بأصابعه الخشنة، عادت إليها كل حواسها، واستفاقت من ذهولها، وأدركت كل ما حدث لها...

اعتدلت جالسة، ورفعت عينيها إلى كازيمودو الذي بقي واقفاً بالقرب منها، فسألته:

ـ لماذا أنقذتني؟

فنظر إليها بقلق، وحاول أن يفهم كلامها...

فألقت عليه السؤال مرة أخرى، فرمقها بنظرة حزينة وخرج من الغرفة...

فدهشت الفتاة من سلوكه.

وبعد دقائق، عاد كازيمودو إلى الغرفة وألقى تحت قدميها حزمة.

كانت الحزمة تحتوي على بعض ثياب جاءت بها إحدى السيدات المحسنات، وتركتها لها في باب الكاتدرائية...

عند ذلك فقط تنبهت ازمرالدا إلى أنها شبه عارية، فاحمر وجهها...

وأدرك كازيمودو معنى احمرار وجهها، فحجب وجهه بيديه الضخمتين،

وانصرف من الغرفة مرة أخرى.

نهضت ازمرالدا وأخرجت ثوباً من الحزمة، وما أن ارتدته حتى عاد الأحدب حاملاً مرتبة وسلة...

كانت السلة تحتوي على زجاجة ماء ورغيف وبعض الطعام، فوضعها بين يدي ازمرالدا وهو يقول:

ـ كلي!

وبسط المرتبة على الأرض وأردف:

ـ ثم نامي.

كان الطعام طعامه، وكانت المرتبة فراشه...

رفعت ازمرالدا نصرها نحوه لتشكره، لكنها لم تتمكن من الكلام.

فقد كان هذا المخلوق التعس دميماً دمامة مخيفة، فأطرقت برأسها، وقد ارتسم على وجهها آية من آيات الذعر والهلع...

فهتف الأحدب:

ـ يا إلهي! لقد أخفتك بدون شك، فأنا دميم الخلقة حقاً، إنما هكذا أرادني الله أن أكون... فلا تنظري إلى وجهي، حسبك أن تسمعي كلامي فقط... أن تصغي إلي... ابقي هنا نهاراً... وتجوّلي ما شئت فوق السطح أثناء الليل...

لكن حذار أن تبرحي هذه المنطقة ليلاً أو نهاراً... وإلا قضوا عليك... وقتلوك... فيكون بذلك موتي.

فدهشت الفتاة من كلامه، وتأثرت... ثم رفعت رأسها لتجيب!

لكنه خرج من الغرفة مهرولاً.

بقيت ازمرالدا لوحدها، وأخذت تفكر مطولاً في كلام هذا المخلوق المخيف

وكان قد أدهشها صوته العجيب!...

صوته رغم خشونته فيه رقة وحناناً...

وانتقلت إلى تفحص غرفتها.

إنها غرفة صغيرة، ليس بها من المنافذ سوى كوة صغيرة تطل على الميدان، وليس بها من الأثاث غير المرتبة التي حملها إليها كازيمودو...

جلست على هذه المرتبة، ودفنت رأسها بين يديها... لكنها لم تلبث أن نهضت خائفة...

فقد شعرت بشيء خشن يمس ساقيها. ارتجفت!... ثم ابتسمت.

كان ذلك الشيء الخشن هو رأس عنزتها المحبوبة...

فقد هربت العنزة في أثرها عندما اختطفها الأحدب، تبعتها إلى تلك الغرفة.

فصاحت البوهيمية وهي تضم رأس العنزة إلى صدرها.

- إنها غالي، يا إلهي... لقد كدت أنساك.

وترقرقت الدموع على وجنتيها وحول فمها الباسم...



إنه قلب آدمي في جسم غير آدمي

نامت ازمرالدا حتى صباح اليوم التالي... وعندما استيقظت أدهشها أن تنام، ذلك لأن النوم هجر جفنيها طويلاً حتى أنها ألفت السهاد!

عادت الابتسامة إليها حين رأت الغرفة تسبح في أشعة الشمس، إلا أنها رأت مع أشعة الشمس شيئاً آخر أزعجها...

إنه وجه كازيمودو المخيف!...

فأغمضت عينيها كي لا تراه، إنما بدون جدوى، إذ خيل إليها أنها ترى ذلك الوجه الدميم وهي مغمضة العينين...

لكنها سمعت صوته الخشن وهو يقول بلطف:

ـ لا تخافي مني ولا تنزعجي، فأنا صديقك، وقد جئت لأطمئن إلى أنك نائمة... فهل يؤلمك أن أنظر إليك وأنت مغمضة العينين؟ إنما استريحي ورفهي عن نفسك فسأخرج...

ها أنذا الآن وراء الباب، فافتحي عينيك باطمئنان!...

كانت تجد في صوته الخشن نبرة حزينة فتركت أثرها العميق في نفس الحسناء... ففتحت عينيها... لكنها لم تجده في الغرفة...

نهضت ازمرالدا واقفة، وأطلت من الباب... فرأت الأحدب المسكين قابعاً

بجانب الجدار كالكلب المطيع الذليل...

فقالت له، وهي تبذل جهداً لتتغلب على اشمئزازها:

ـ تعال!...

شاهد كازيمودو حركة شفتيها، فتصور أنها تأمره بالانصراف بعيداً، فقام لتوه، وابتعد ببطء دون أن يرفع رأسه...

فصاحت به:

ـ تعالى...

لكنه استمر بالابتعاد.

فأسرعت في إثره، وأمسكت بساعده...

فارتجف الأحدب... واضطرب كل جسمه حين أحسّ بلمستها...

ورفع إليها عينيه، فوجدها تجتذبه نحوها، فأشرق وجهه الدميم...

أرادت أن يدخل غرفتها...

لكنه امتنع وأصرّ على الوقوف بالباب قائلاً:

ـ كلا... كلا... إن البومة لا تدخل وكر البلبل.

جلست ازمرالدا على المرتبة، فراح كل منهما يتأمل الآخر بصمت وسكون...

فنظر هو إلى جمال يبهر البصر، ونصرت هي إلى دمامة ينفر منها الذوق!...

وكلما مرَّت دقيقة كانت ازمرالدا تكتشف في الأحدب بشاعة جديدة...

فانتقل بصرها من ركبتيه المتعانقتين إلى صدره البارز، ومن صدره البارز إلى عينه المفردة...

فلم تصدق أن الدنيا تتسع لبشاعة كهذه...

بدَّد الأحدب السكون بقوله:

ـ هل طلبتني عندما انصرفت من غرفتك؟

فأومأت برأسها علامة الإيجاب.

فقال بعد تردد قصير:

ـ أنا آسف... إنما عليك أن تعلمي أنني أصم.

فهتفت بشفقة:

ـ مسكين!...

فابتسم ابتسامة حزينة وقال:

ـ أكان ينقصني الصم أيضاً؟ أجل... أجل... إنني أصم... وعلى جانب كبير من البشاعة... أليس كذلك؟

وفي حين أنك تملكين هذا القدر العظيم من الجمال والرقة!...

وكان صوته ينم عن تعاسة لا حد لها، ولم تعرف الفتاة بماذا تجيبه...

وهي لو أجابت لما سمعها...

ثم استطرد قائلاً:

ـ لم أشعر يوماً بمدى دمامتي قبل الآن، فكلما قارنت بين نفسي وبينك لا أتمالك من الإشفاق على نفسي... وهل لي أن أسأل لماذا؟...

فأنا بنظرك وحش أبشع من وحوش الغابات، أما أنت فإنك في نظري شعاع من أشعة الشمس، وقطرة من قطر الندى، وتغريدة من أغاريد الطيور...

وضحك ضحكة طويلة... ثم استطرد قائلاً:

ـ أجل... إنني أصم... إنما يمكنك التحدث إلي بالإشارة، فقد علمني مولاي أن أفهم الإشارة، كما علمني أن أفهم الكلام من حركات الشفاه، ومن نظرات العيون...

فقالت وهي تبتسم:

- حسناً... فأخبرني لماذا أنقذتني؟

فنظر إلى شفتيها وهي تتكلم، وأجاب:

- لقد فهمت... فأنت تسألينني لماذا أنقذتك، أنت نسيت ذلك التعس الذي حاول اختطافك في أحد الأيام فأسعفته بجرعة ماء في اليوم التالي... إن تلك الجرعة من الماء ومعها نظرة العطف من عينيك، هما أكثر بكثير مما أستطيع دفع ثمنه بحياتي، لا شك أنك نسيت ذلك التعس... ولكنه لم ينسَ...

وأصغت إليه مطولاً، وبلغ منها التأثر مبلغاً عظيماً.

وترقرقت دمعة في عين الأحدب، إلا أنها لم تتدحرج...

فصمت قليلاً ثم قال:

- انظري من حولك... إن هنا أبراجاً كثيرة وشاهقة الارتفاع... إذا سقط الإنسان من فوقها مات قبل أن يلامس الأرض، فإذا أردت الخلاص مني في أحد الأيام فاطلبي مني أن ألقي بنفسي من فوق أحد الأبراج، كلمة واحدة منك تكفي...

وهم بالانصراف.

فأومأت إليه أن يبقى... لكنه قال:

- كلا... كلا... يجب ألاَّ أبقى هنا طويلاً، فأنا لا أشعر بارتياح إذا كنت تصبرين على بقائي أمامك، فكل ما تفعلينه تجاهي بداعي الشفقة، لكنني سأبحث عن مكان أستطيع منه أن أراك دون أن تريني، ذلك هو أفضل...

ثم أخرج من جيبه صفارة معدنية وقال:

احتفظي بهذه الصفارة، وكلما أردت مني شيئاً، وتشجعتي لرؤية وجهي فاستخدميها عندها أسمع وأفهم أنك تريديني...

ثم وضع الصفارة على الأرض وانصرف بسرعة...



الطين والبلور

عاشت ازمرالدا بطمأنينة ضمن كاتدرائية نوتردام ومع خادمها الأمين الأحدب.

ومرت الأيام، فعادت الطمأنينة إلى نفس ازمرالدا، ذلك لأن الحزن الشديد كالفرح الشديد، لا يستطيع القلب البشري أن يتحمل أحدهما أو كليهما...

ومع عودة الطمأنينة إلى النفس... عاد الأمل أيضاً...

زال شبح الموت عنها، لكنها كانت بعيدة عن المجتمع، بعيدة عن الحياة، إلاّ أنها بدأت ترجو أن تعود إليهما معاً.

وبدون شك، عادت لتفكر في الكابتن فيبوس، لكن ذكراه تمتزج بشيء كثير من الألم والمرارة...

فقد كانت واثقة من أنه سمع صوتها عندما نادته في ساحة الإعدام، وأنه تجنبها عمداً، فهل كان يعتقد كما اعتقد الآخرون أنها هي التي طعنته تلك الطعنة التي أوشكت أن تقضي عليه؟

* * *

كانت أفكارها مشوشة، فإذا تعبت من التفكير في فيبوس تحوَّلت إلى التفكير في كازيمودو... فقد أصبح الحلقة الوحيدة التي تربطها بعالم الأحياء، وكثيراً ما لامت نفسها على قصورها في إظهار الوفاء له... عليها أن تعترف بجميله... ألا يستحق

نظرة رحمة أو نظرة عطف... يا لقساوة قلبها تجاهه.

* * *

دخل عليها كازيمودو، في أحد الأيام، وهو يحمل لها الطعام والماء بين يديه.

فوجدها تدلل عنزتها... ووقف يتأمل هذا المشهد الجميل، أي مشهد الحسناء الجميلة الراقصة وهي تدلل الحيوان المحبوب... فما لبث أن هز رأسه وقال:

- يا لسوء حظي، خلقت أشبه الإنسان بعض الشبه... فيا ليتني كنت حيواناً كهذه العنزة!...

ووقف في يوم آخر بباب غرفتها وسحنته متبدلة، فقال لها بخجل وحياء:

- أصغي إلي!... عندي ما أريد قوله لك!...

فأشارت إليه بأنها ستصغي إليه...

ففتح فمه كي يتكلم... لم يستطع...

فهز رأسه... وتنهَّد... ومن ثم لاذ بالفرار بسرعة تاركاً ازمرالدا في دهشة شديدة!...

* * *

وفي أحد الأيام بينما كانت ازمرالدا تطل من نافذة غرفتها، والأحدب واقف في باب غرفتها، لا يجسر على الدخول حتى لا يزعجها بدمامته.

وفجأة... أشرق وجه الفتاة... ثم ضربت حافة النافذة بيدها... وصرخت:

- فيبوس، فيبوس، تعال... أريد أن أقول لك كلمة... كلمة واحدة... فيبوس...

وارتسمت على وجهها آية من آيات الألم والخوف، فدخل كازيمودو الغرفة ونظر من النافذة، فرأى الضابط يجتاز الميدان.

فهم الأحدب وضعها كما فهم الموضوع بكامله...

فتنهّد وضغط رأسه بين يديه... وعندما رفع يديه من شعره كانت بين أصابعه خيوط من شعره الأحمر...

أما ازمرالدا فلم ترَ شيئاً من ذلك ولا مما خالج نفس الأحدب من ألم لكنها استمرت بالصياح:

ـ فيبوس... فيبوس.

فسألها الأحدب بصوت خافت:

ـ هل أذهب إليه وأدعوه؟

فصاحت البوهيمية بخوف وارتجاف:

ـ أجل... أجل... أسرع. فهل رأيته؟ جئني به فأحبك.

فعانقت ساقيه، ونظرت إليه ضارعة؟...

فهز رأسه وأجاب:

ـ سأذهب إليه، اطمئني وسآتي به.

وعندما وصل الأحدب إلى الميدان كان الكابتن يدخل بيت المركيزة، فانتظر في الباب وطال انتظاره! إلى أن غابت الشمس وراء الأفق، وهبط الظلام، وانتصف الليل...

أخيراً فتح الباب، فتراجع الأحدب إلى الوراء، وأبصر الضابط وهو يتحدث إلى فتاة رافقته إلى الباب الخارجي، وكأنها تودعه، ثم رأى الضابط يعانق الفتاة ويقبلها...

بعد ذلك أغلق الضابط الباب وامتطى صهوة جواده...

عند ذلك أسرع إليه الأحدب وأمسك بزمام الجواد.

فصاح فيبوس وهو يتبين في الظلام وجه الشخص الذي أمسك بالجواد وأوقفه:

- ماذا تريد أيها الغر؟

فلم يسمع كازيمودو كلامه، إلا أنه قال بصوت رزين:

- اتبعني يا سيدي الضابط، يوجد شخص يريد أن يتحدث إليك. فصاح الضابط:

- اترك الجواد أيها الوغد، إنني لا أقابل أحداً في مثل هذه الساعة.

- ألا تريد أن تعرف من هو ياسيدي الضابط؟

- قلت لك اترك الجواد وإلا الهبتك بسوطي!

وازداد كازيمودو تعلقاً برأس الجواد، وقال ليفري فيبوس بمرافقته:

- الشخص الذي يريد مقابلتك: سيدة!

- رائع، وهل تظن أنني مرغم على مقابلة امرأة تعجب بي؟

إذهب إلى السيدة التي تتكلم عنها وقل لها إنني مقبل على الزواج.

فصاح كازيمودو:

- إنها البوهيمية الراقصة الحسناء التي تعرفها يا سيدي؟

فصمت فيبوس لحظة ثم صاح بذعر:

- البوهيمية! دعها تذهب إلى الشيطان!

وحاول الضابط السير لكن الأحدب لم يتزحزح من موضعه، فرفع الضابط يده وأهوى بسوطه على رأس الأحدب وهو يصرخ:

- قلت لك اترك الجواد!...

أحس كازيمودو بالسوط يلهب وجهه، فلمعت عينه، وأتى بحركة كأنه يريد الانقضاض على الضابط....

لكنه عاد وتمالك نفسه، وأمسك عن الهجوم فترك زمام الجواد وهو يقول بصوت خافت:

ـ إذهب!...

ووقف جامداً مكانه، وشيع ببصره سير الحصان والضابط إلى أن ابتلعهما الظلام، ثم عاد متمهلاً في الطريق إلى الكاتدرائية.... ولما وصل إلى غرفتها.... وجد البوهيمية مسمرة في مكانها أمام النافذة تنتظر... ولما رأته صاحت بحزن عميق:

ـ وهل عدت وحدك؟

فأجاب بكل هدوء:

ـ لم أتمكن من مقابلته!

فصاحت بغضب:

ـ كان ينبغي أن تنتظر الليل بكامله.

وأدرك من نظراتها أنها تؤنبه.

فقال:

ـ سأحسن مراقبته في المرة القادمة.

فصرخت:

ـ اغرب إذن عن وجهي!...



لقاء الشقيقين

عندما علم الأسقف بنجاة الغجرية، ألصق جبهته بزجاج النافذة، وبقي وقتاً طويلاً.... والوضع المثير كونها في الكاتدرائية على مقربة منه، فهو لم يعرف للراحة طعماً وسوف لا يعرف أيضاً....

أخيراً ترك النافذة، واستوى جالساً أمام مكتبه، لعله يتمكن من أن يشغل نفسه بالقراءة!

إلا أنه ما كاد يتصفح أحد الكتب التي كانت تهمه كثيراً، حتى فتح باب الغرفة، ودخل شاب يعرفه القارئ بدون شك.

إنه جيهان فرولو شقيق الأسقف.... وقد علم الأسقف أنه هو دون أن ينظر إليه.... لأنه الوحيد الذي يجرؤ على دخول الغرفة بدون إستئذان...

فقال الأسقف وبلهجة خشنه ودون أن ينظر إليه:

- ماذا تريد؟

فأجاب الشاب في خجل:

- لقد جئت لأراك يا شقيقي.

- فقط؟

فقال الشاب المنافق:

ـ أخي أنا أعلم إنك كريم، وإنك تبذل لي غالي النصح، ولذلك لا يمكنني أن أغيب عنك طويلاً.

ـ ثم....

ـ لقد جئتك اليوم نادماً مستغفراً، معترفاً بعبثي وبآثامي، وقد عقدت العزم على أن أثابر على الدراسة، ولكن ليس عندي لا ورق ولا قلم، ولا كتب... وعلي أن أبتاع كل ذلك!..

ـ أهذا كل ما عندك لتقوله؟

ـ كلا بل أريد كذلك أن أقول لك: أحتاج لبعض النقود!...

فأجاب الأسقف بخشونة:

ـ لا نقود عندي.

فقال الشاب بحدة:

ـ إذن يؤسفني أن أقول لك يا أخي انني مضطر، والحالة هذه، أن اطرق ابواب اخرى...

توقف قليلاً ثم اكمل:

ـ أمصمم أنت على عدم منحي النقود التي احتاجها؟

ـ أجل!...

ـ إذن سأصبح متشرداً... ولصاً... وسأذهب تواً إلى دار العجائب!...

ـ إذهب!...

فنظر الشاب إلى أخيه مطولاً، وما لبث أن دار على عقبيه وانصرف غاضباً غير راضٍ.



الفصل التاسع والعشرون

المفاجأة

استيقظت ازمرالدا يوماً بشكل مفاجىء إثر سماعها حركة بالقرب منها.... فقد كان نومها خفيفاً قلقاً كنوم الطيور...

فتحت عينيها ورأت على ضوء المصباح شخصاً ينظر إليها....

فوثبت من مكانها بقفزة واحدة كما لو أنها شاهدت شيطاناً... وصاحت بهلع:

- الأسقف!....

فانقض عليها بسرعة جنونية وحملها بين ساعديه بقوة...

فصاحت:

- أيها القاتل الأثيم....

فغمغم الأسقف وهو يقبلها بكتفها:

- رحماك!...

فأمسكت بشعر رأسه بكل ما في يديها الناعمتين من قوة لتمنعه من تقبيلها... ثم استطرد متوسلاً:

- رحماك.... إن حبي لا يستطيع أن يتحمل أكثر من ذلك، فحبي لك

كالرصاص المصهور، إنه كآلاف الخناجر التي تمزق قلبي!...

ـ دعني وإلا بصقت في وجهك....

فتركها وهو يقول:

ـ إفعلي بي ما شئت، إنما أحبيني فقط!...

وحاول مرة اخرى أن يضمها بين ساعديه، إلا أنها انهالت عليه ضرباً ولكماً.

ولدى استمراره في ضمها، اخذت تصيح بأعلى صوتها:

ـ النجدة... النجدة!...

فقال وهو يلهث:

ـ سوف أضع حداً لكل هذا، إصمتي!...

عند ذلك تذكرت ازمرالدا الصفارة المعدنية، فرفعتها إلى فمها، ونفخت فيها فارسلت الصفارة صوتاً ثاقباً مزق سكون الليل.

فذعر الأسقف وهتف:

ـ ما هذا!

وفوراً شعر بيد قوية تشد به لتحوله إلى أحد أركان الغرفة... ثم أحس بنفسه يرزح تحت ركبتين هائلتين... فنظر إلى وجه غريمه، فإذا به كازيمودو!...

ورآه كازيمودو، وعرفه أيضاً!...

فانقلب الموقف في طرفة عين، إذ نهض الأحدب فوراً عن صدر الأسقف، وتراجع إلى الوراء إلى أن التصق بالجدار....

ثم أطرق كازيمودو برأسه اطراقة المذنب...

في حين اقترب منه الأسقف... وهو يهدد ويتوعد بنظراته وحركات يديه!...

وعندما هدأت الأجواء قليلاً، أشار الأسقف إلى الأحدب أن ينصرف، فجثا الأحدب على ركبتيه وقال:

ـ سيدي... اقتلني أولاً، وافعل بعد ذلك ما تشاء!...

فركله الأسقف بقدمه ركلة ألقته فوراً على الأرض، ثم انطلق من الغرفة، وغاب تحت ستار ظلام الليل.

فقد شعر الأسقف بالغيرة من كازيمودو، لأن هذا الأخير كان يردد في سره هذه الكلمات القاسية:

ـ لن ينالها أحد، أقسم إنها لن تكون لأحد!...

الفصل الثلاثون

ما هي خطة جرنجوار للإنقاذ؟

كان بيار جرنجوار يتردد إلى الميدان ويقف في مختلف أركانه ينظر إلى جدران الكاتدرائية لعله يرى ازمرالدا في إحدى نوافذها...

وفي أحد الأيام، بينما كان يتأمل جدران الكاتدرائية كعادته شعر بيد توضع على كتفيه، وسمع صوتاً يقول:

ـ يبدو أنك لم تنس زوجتك بعد!...

فنظر الشاعر إلى محدثه وصاح:

ـ آه! يا إلهي! أهذا أنت يا سيدي الأسقف؟ فعلاً كدت أنسى زوجتي ولكنني لا أستطيع أن أنسى العنزة الصغيرة.

ـ لا تهمك رؤية زوجتك إذن؟

ـ أجل يسرني أن أعرف عنها أخباراً سارة، إلا أن سروري يكون أعظم إذا سمعت ثغاء عنزتها...

فنظر إليه الأسقف بإمعان، ثم قال بصوت خافت:

ـ إليك هذا النبأ: قرر البرلمان حرمان الساحرات من حق الحصانة، وعليه فإن زوجتك سترغم غداً أو بعد غد على الخروج من مكمنها!...

فخاف جرنجوار على ازمرالدا من هذا النبأ المشؤوم، لكنه تظاهر بقلة الاكتراث... وقال:

- هذا أمر يؤسف له!

وتوقف قليلاً ثم أضاف:

- ألا من سبيل لاعادة الاطمئنان إلى ازمرالدا؟

فنظر إليه الأسقف من رأسه حتى أخمص قدميه.

وقال:

- لقد أخبرتني سابقاً أنها انقذت حياتك!

- أجل هذا الصحيح، لقد انقذت حياتي في الوقت المناسب من أولئك الذين أصبحوا الآن أعز أصدقائي...

- إذن حاول أن تفعل شيئاً من أجل انقاذها!

- عندي كل الرغبة في أن أفعل شيئاً من أجلها... إلا أنني أخشى أن أورد نفسي موارد مهلكة...

- وهل تهتم لذلك؟ فأنت شجاع!...

- لا يهم؟ إنك طيب القلب فعلاً يا أبتِ.

فوضع الأسقف يده على جبينه وغمغم:

- وكيف يمكن إنقاذها إذن؟

فهز جرنجوار كتفيه، وقد كان أكثر اهتماماً من الأسقف بالوصول إلى حل لهذه المعضلة المعقدة!...

فعصر الشاعر ذهنه، واهتدى إلى حل. فقال:

- افترض يا أبت اننا التمسنا من الملك أن يعفو عنها.

ـ من لويس الحادي عشر؟

ـ من ذا الدي يستطيع انتزاع «العظمة» من مخالب النمر الجائع؟

ـ ثم هب اننا زعمنا أن الفتاة حامل.

فقلب الأسقف شفتيه وأجاب:

ـ لا أظن أن لويس الحادي عشر يخشى من أن يقتل نفسين عوضاً عن نفس واحدة.

ـ إذن، أي حل تقترح أيها الأب المحترم؟

ـ فأجاب الأسقف:

ـ لا أدري، إنما يجب البحث عن حل للمسألة بأسرع وقت ممكن... ففي حال بقيت الفتاة هنا يوماً آخر، فلن تستطيع أية قوة على الأرض أن تنقذها من يد الجلاد!...

ثم استطرد بعد أن صمت قليلاً:

ـ كما ينبغي بعد ذلك أن يتم انقاذها من كازيمودو... إن النساء مخلوقات غريبات الأطوار...

وقد لا يدري أحد إلى أي درك يمكن أن يصلن في انحدارهن...

فصاح جرنجوار فجأة:

ـ لقد وجدت حلاً يا أبت.

فالتفت إليه الأسقف متسائلاً، فاقترب منه الشاب وهمس في إذنه كلاماً بقي سرٍّ بينهما....



الفصل الحادي والثلاثون

الهجوم

انتفضت دار العجائب فلفظت حشراتها وزواحفها، فزحف منها تحت جناح الظلام جيش عرمرم من الرجال المسلحين بالعصي والخناجر، وتفرقوا من أمام الدار جماعات جماعات سلكت كل منها طريقاً، على أن تتقابل كلها في ميدان لا جريف.... أمام الكاتدرائية.

ففي تلك الليلة لم يكن كازيمودو قد نام، إذ قام يتفقد الأجراس في الأبراج كعادته، كما تفقد أبواب الكاتدرائية، فكانت دهشته كبيرة حين وجد الباب الخارجي مفتوحاً!...

فاغلق ذلك الباب بالمزلاج، وصعد إلى سقف الكاتدرائية، وجلس في باب غرفة ازمرالدا.... إلا أنه لم ينم.....

فقد كان يشعر بشكل عزيزي بقلق مبهم، فاشتد به القلق، حين نهض من مكانه، وهبط متفقداً فناء الكاتدرائية، وتفقد من جديد الباب الخارجي مرة اخرى، ودهش حين رأى المزلاج مرفوعة وهو الذي كان قد أقفله بنفسه!...

أعاد وضع المزلاج وتأكد منه، وابتعد ثم نظر إليه، فاطمأن، وصعد إلى السقف وجلس يراقب ويتربص....

لم تمضِ أكثر من ساعة حتى اجتمع شعب دار العجائب في الميدان تحت قيادة

كلوبان ترولفو وبيار جرنجوار وجيهان فرولو، فتأهبوا كلهم لاقتحام الكاتدرائية وانقاذ ازمرالدا...

في الميدان أُضيئت المشاعل، وأصدر كلوبان أمره بالهجوم، فانحدر ذلك الجيش الجرار على الكاتدرائية، وألقوا بأنفسهم على بابها. فاهتز الباب بكامله وبشكل عنيف إلا أنه لم يفتح!

فاقترح جرنجوار تحطيم الباب، أما جيهان فقد اقترح فتحه بالحيلة، وأمر كلوبان بتنفيذ الاقتراحين...

فتم تحضير كتلة ضخمة من الخشب، حملها مئات الرجال وانهالوا بها على الباب في حين جاء جيهان فرولو بسلّم لكي يتسلق به جدار الكاتدرائية... فيهبط إلى داخلها ويفتح الباب لزملائه...

وفجأة... خيل لجيش دار العجائب الهاجم على الكاتدرائية، أن الشياطين القائمة على جدران الكاتدرائية قد تحرَّرت وحطمت أغلالها... ومن ثم شنت عليهم حرباً، إذ بدأت تنهال عليهم الحجارة من سطح الكاتدرائية، وذلك من أكثر من مكان واحد...

وكأن جيشاً يقابل هجومهم بهجوم معاكس.

في حين كان كلوبان ورجاله في حركة أشبه بالمد والجزر، بين هجوم على الباب وارتداد عنه... تمكن جيهان من تسلق السلم... والوقوف على نتوء في الجدار. وحذا حذوه بعض زملائه... إلا أنهم ما كادوا يصلون إلى قمة السلم حتى اهتز السلم اهتزازاً قوياً وذلك بيد جبارة... وانقلب السلم من علو... فسقط الرجال على الأرض وهم يصرخون ويشتمون!...

أما جيهان فقد اعتقد أنه نجا بنفسه، وحاول أن يثب إلى فناء الكاتدرائية كي يفتح الباب لزملائه.

إلا أنه، وبشكل مفاجىء، أحس بساعدين يحيطان بجسمه كأنهما ثعبان هائل، ونظر فرأى وجه كازيمودو فانخلع قلبه من مكانه...

إثر ذلك حمله الأحدب بين يديه كما يحمل طفلاً، ووثب به على الجدار وثوب القردة، وقذف به من فوق فسقط الفتى بين أعوانه صريعاً.

تحمس زملاء جيهان بقوة وكذلك الرعاع الآخرين، فضاعفوا قوة هجومهم، خاصة للأخذ بثأر زميلهم...

اهتز الباب تحت ثقلهم اهتزازاً عنيفاً.

حدث كل ذلك، وكازيمودو يتحرك بسرعة فائقة فهو فوق جدار الكاتدرائية يرمي بالحجارة، وهو عند الباب يحارب كل دخول ممكن عبر السلم... إنه في كل مكان...

وفي حال احتاج إلى الحجارة، انتزعها من الجدران، وألقى بها على رؤوس الرجال المهاجمين...

وبسرعة البرق أحضر الرعاع أكثر من سلم واحد، وارتفع الصياح والصراخ من كل جانب، فوجد كازيمودو نفسه في آخر المطاف مشرفاً على الهزيمة...

فأخذ يسير ذهاباً وإياباً فوق السقف وهو كالأسد السجين.

ورفع يديه إلى السماء وهتف من أعماق نفسه:

- يا إلهي!... هل من معجزة؟

لكن الهجوم استمر...

* * *

وحدثت المعجزة...

استيقظ الناس الذين يقطنون بالقرب من الكاتدرائية وعلموا بالهجوم فكان أن

ذهب أحدهم لإعلام الملك بأمر هذه الفتنة، فقيل له أن الشعب الساخط يهاجم الكاتدرائية لإخراج البوهيمية الساحرة، وإحراقها...

فرأى الملك أنه لا بد من إخماد الفتنة وإرضاء الشعب في وقت واحد فأمر جنوده بطرد المتمردين ومهاجمة الكاتدرائية، ومن ثم القيام بشنق الساحرة.

* * *

وهكذا حدثت المعجزة، فغص الميدان بالجنود الذين أقبلوا، لا لإنقاذ ازمرالدا كما توهم كازيمودو، بل لاعتقالها، وتنفيذ حكم القضاء فيها.

فهرول الأحدب إلى غرفة البوهيمية لينقل إليها نبأ الخلاص، لكنه ما كاد يصل إلى غرفتها حتى تسمر واقفاً في مكانه...

ما الأمر؟

لم يجد في الغرفة أثراً للفتاة التعسة!...



الفصل الثاني والثلاثون

الاختطاف

استيقظت ازمرالدا ليلاً على أصوات الرعاع في الخارج، ودبَّ الذعر في قلبها، خاصة بعد أن أطلت من النافذة، وشاهدت كل هذه الجموع المحتشدة في مختلف أركان الميدان...

فالميدان وحده يبدو كأنه في النهار من كثرة المشاعل، أما باقي المدينة فلا تزال مظلمة... فالحالة تبدو كحالة الحرب...

لكنها استنتجت أن لهذه الحركة علاقة بوجودها في الكاتدرائية، قامت وفتحت باب غرفتها لتدعو كازيمودو، وتحاول الوصول إلى الطمأنينة إذا كان الأحدب معها... إلا أنها، ما كادت تخرج من الغرفة حتى انقض عليها الأسقف وكمَّ فمها بيده قبل أن تتمكن من الاستغاثة، وحملها بين ساعديه وسار بها من باب الكاتدرائية الخلفي...

واستمر الأسقف يعدو بها إلى أن وصل إلى إحدى أركان الميدان حيث يوجد برج رولاند، فوقف هناك وهو يلهث، أوقفها أرضاً إلا أنه بقي ممسكاً بيدها...

أما ازمرالدا فقد كانت مذهولة... وحتى لو لم يمسك بيدها لما حاولت الهرب...

حدث كل ذلك وهي تتصور وكأنها في حلم خبيث لا نهاية له.

فطالبها الأسقف وللمرة الأخيرة أن تكف عن عنادها قائلاً:

ـ إنها آخر فرصة تستطيعين أن تنتهزينها للنجاة بنفسك!...

هكذا ترك لها لآخر مرة أن تختار بين الحياة والموت:

إما أن يتركها لرجال الشرطة الذين اجتمعوا في الميدان، وإما إن تهرب معه!...

فكل أساليب الأسقف من التوسل والرجاء إلى التهديد والوعيد... كل ذلك لم يحوِّل ازمرالدا عن موقفها...

والتفت الأسقف ناحية الكاتدرائية فرأى الأخت جيدول تطل من نافذة غرفتها وتراقب ما يحدث في الميدان من أمور غريبة...

فقال محدثاً ازمرالدا:

ـ أسألك مرة أخرى: ألا تكونين لي؟

فأجابته بكل ثبات وعزم:

ـ كلا!...

فصاح:

ـ جيدول، أيتها الأخت، ها هي الفتاة البوهيمية، فانتقمي لنفسك منها، فهي من تلك العشيرة التي خطفت لك ابنتك.

ودفع الفتاة إلى الجدار، وكانت الأخت جيدول قد وصلت فأمسكتها بيدها وشدت عليها.

وصاح الأسقف:

ـ حذار أن تفلت منك ريثما أنادي الشرطة.

فانطلق الأسقف نحو وسط الميدان وترك الفتاة في قبضة العجوز.

ضاع وعي ازمرالدا، ولم تتمكن من استيعاب كل ما يحدث، فارتمت على

الجدار من شدة الإعياء وقد اضمحلت قواها...

فصاحت بها الأخت جيدول وهي تضحكك ضحكة مخيفة.

ـ ستشنقين فوراً! ستشنقين فوراً!...

فالتفتت نحوها ازمرالدا وهي تكاد تموت من كثرة الرعب المسيطر عليها فرأت وجهها المخيف من خلال قضبان النافذة وقالت:

ـ ما الذي فعلته لك؟ وأي أذى ألحقته بك؟

فصرخت العجوز:

ـ أتسألين أي أذى ألحقته بي؟ أيتها الخبيثة الداهية؟ ألا فاسمعي إذن:

ـ لقد كانت لي طفلة، هل فهمت؟ كانت لي طفلة صغيرة جميلة في المهد، فسرقوها مني، سرقوا طفلتي وهربوا... نعم هذا هو الأذى...

فأجابتها المسكينة جواب الحمل عندما أمسك به الذئب:

ـ ولكنني لم أكن ولدت في ذلك الحين! رحمة بي!... سيدتي إنهم قادمون...

أناشدك الرحمة... لم أسيء إليك يوماً!... أتريدين لي هذه الميتة الشنيعة وأمام عينيك؟ أنت رحيمة يا سيدتي... إنني واثقة منك فدعيني أهرب... لا أريد أن أموت هذه الميتة المخيفة!...

ـ أعيدي إلي طفلتي

ـ دعيني أذهب بحق السماء!...

وتهالكت الفتاة من شدة التعب ومن فرط الرعب، وقالت بلسان متلعثم:

ـ أنا آسفة جداً الآن، أنت تبحثين عن ابنتك، وأنا أبحث عن أبوي.

فقالت العجوز:

- قلت لك أعيدي إلي ابنتي، ألا تعرفين أين هي؟ إنتظري لحظة سأريك حذاءها الصغير!...

... هذا كل ما بقي عندي منها؟ فهل تعرفين أين فردته الأخرى؟

فلو كانت في آخر الدنيا فسأذهب إليها... ولو زحفت إليها على يدي وعلى ركبتي!...

ومدت يدها بفردة الحذاء الصغير من خلال النافذة. وكان الضوء كافياً ليبدي الشكل واللون لازمرالدا.

فقالت ازمرالدا وهي ترتعد من الخوف:

- دعيني أتأمل هذا الحذاء! فصاحت بأعلى صوتها:

- رباه ماذا أرى؟

فمدت يدها الحرة من القيد تفتح الحقيبة الصغيرة المعلقة حول عنقها، في حين بقيت جيدول تغمغم:

- إبحثي في جرابك؟ وفتشي فيه؟

ثم أمسكت عن الكلام فجأة وهي ترتجف وتصرخ بصوت ينبعث من أعماقها:

- إبنتي؟ إبنتي؟

وكانت آنذاك ازمرالدا قد أخرجت من حقيبتها فردة حذاء صغير تشبه الفردة الأخرى تماماً... وقد علقت بها ورقة كتبت فيها هذه العبارة «من يعثر على شبيهتها، يعثر على والدة الطفلة».

وقارنت العجوز الفردتين إحداهما بالأخرى وقرأت العبارة المكتوبة في الورقة، وألقت بوجهها على القضبان الحديدية وعيناها تبرقان بريقاً عجيباً وهي تصيح:

- إبنتي... إبنتي!...

وصرخت ازمرالدا

ـ أمي... أمي!...

تناولت الأم يد ابنتها من خلال القضبان ورفعتها إلى شفتيها، وطبعت عليها قبلة طويلة، وكأنما قد ذهلت عن الدنيا حولها وما فيها، ولم تستطع أن تبدي من امارات الحياة سوى زفرات تتصاعد بين الحين والحين من صدرها.

وعمى الدمع عينيها فبكت بصمت وكان دمعها مدراراً كالمطر في سكون ليل هادىء؟...

ثم رفعت رأسها فجأة، وأخذت تضرب قضبان حبسها بيديها كما تفعل اللبوة المحتبسة الهائجة...

فانطلقت بسرعة البرق إلى ركن من سجنها وأحضرت قطعة من الحجارة وأخذت تضرب القضبان الحديدية بكل قواها، إلى أن انكسر قضيب منها فأهوت على الحديدة العارضة ضرباً بالحجارة حتى كسرتها أيضاً.

واستمرت تضرب مسترسلة في حركاتها وكأنما قد أعطاها الله في تلك اللحظات قوة خارقة لقوى البشر...

وبهذه الطريقة الصعبة أزالت الحاجز الذي كان يحول بينها وبين ابنتها، فأخذتها في أحضانها واجتذبتها إلى داخل الغرفة وهي تغمغم قائلة:

ـ تعالي يا ابنتي، دعيني أنقذك من الهاوية؟

وأجلستها بكل رفق فوق الأرض...

ثم عادت وحملتها بين ذراعيها، كأنها ما زالت طفلتها الصغيرة، فلم تكبر ولم يمر الزمن...

وأخذت تخطر في الغرفة نشوى من شدة الفرح.

تغني تارة... وتصرخ تارة أخرى...

تقبل ابنتها... وتتحدث إليها...

تضحك وتبكي... في الوقت نفسه!...

* * *

لم تمر لحظات حتى تردد في الفضاء صليل الأسلحة، وسمع وقع حوافر الخيل...

فلم تصل هذه الأصوات إلى مسمع ازمرالدا حتى ارتمت في أحضان أمها خوفاً وهلعاً!...

وصاحت:

ـ أنقذيني يا أماه إنهم قادمون!...

فهتفت أمها وقد اصفر لونها:

ـ رباه! لقد نسيت أنهم يبحثون عنك، فما الذي فعلته يا بنية؟

فقالت:

ـ لا أدري، لكنهم قضوا بموتي...

ـ كلا كلا أنت واهمة، لا يمكن أن يكون ما قلت... بعد أن فقدتك ستة عشر عاماً، أجدك لحظة لكي أعود وأفقدك العمر كله؟

كلا كلا... لن يحدث هذا وفي السماء رب رحيم.

في تلك اللحظة وصل الجنود ووقفوا أمام النافذة، فقال الضابط الذي يتولى قيادتهم:

ـ أيتها العجوز لقد جئنا للبحث عن ساحرة لشنقها وقد قيل لنا أنها عندك.

فتظاهرت الأم وكأنها لم تفهم فقالت:

ـ لا أفهم ماذا تقول؟

فصاح الضابط:

- أيتها العجوز الشمطاء، لقد أوكلوا إليك حراسة ساحرة فماذا فعلت بها؟

- لقد عضتني فتركتها تذهب.

- أحقاً تقولين؟ وأي اتجاه سلكت؟

فأجابته بقلة اكتراث:

- لا أعلم!...

أراد الضابط أن ينصرف، لكنه لاحظ القضبان المحطمة فصاح:

- كذبت أيتها العجوز، لقد أويتها عندك! وهذه القضبان المحطمة دليل على ذلك... فقد كانت القضبان دون تحطيم هذا الصباح.

فأمر رجاله باقتحام الحجرة من النافذة، فأيقنت العجوز أن أمر ابنتها قد افتضح، فاستماتت في سبيل الدفاع عنها، وسدت النافذة بجسدها:

فقال الضابط: الساحرة هنا بدون شك، ولماذا تمنعينا من اعتقالها؟

فضحكت المرأة المسكينة ضحكة مخيفة وصاحت:

- أتسألني لماذا أمنعكم من أخذها؟ لأنها ابنتي؟

- هذا أمر يؤسف به، وإنما نحن ننفذ إرادة الملك؟

فاشتد ضحكها وقالت:

- وماذا تهمني إرادة الملك؟ فقد قلت لك إنها إبنتي...

فصاح الضابط متضجراً:

- اهدموا الجدار واقتحموا الحجرة؟

- إنها ابنتي... ابنتي العزيزة... فقدتها في المهد طفلة...



الفصل الثالث والثلاثون

العقاب

أثناء حرب كازيمودو ضد الرعاع، خطر بباله أن يتفقد البوهيمية فقصد غرفتها فوجدها خالية، فالفتاة ليست فيها، فقال في نفسه:

لا بد من إنها اختطفت في الوقت الذي كان يدافع عن الكاتدرائية دفاعاً عنها، فضرب رأسه بيديه، وضرب الأرض بقدميه، وراح يعدو هنا وهناك في أنحاء الكاتدرائية باحثاً، منقباً، وناثراً شعره هنا وهناك.

وبعد البحث بدقة في كل الكاتدرائية وصل إلى الفناء في اللحظة التي تمكن فيها الجنود من إجلاء الرعاع عن الباب بعد أن فتحوه...

فدخل الجنود الكاتدرائية، وبحثوا عن الفتاة.... وعاونهم الأحدب وفتح لهم كل المخابىء، دون أن يعلم ما هو غرضهم، لأنه كان لا يزال يظن أن الرعاع هم مصدر الخطر على الفتاة، وأن الجنود إنما جاءوا لإنقاذها، ولم يخطر بباله أن الحقيقة عكس ما توهم...

* * *

هكذا بحث الجنود عن الغجرية في كل مكان داخل الكاتدرائية... ثم انصرفوا، وبقي كازيمودو وحده في الكاتدرائية... فيها استأنف التفتيش في أنحاء الكاتدرائية عشرين مرة، بل مائة مرة، وكان يسير بادىء ذي بدء على مهل، ثم

بخطى أوسع ومن ثم بدأ يعدو... وكان يبحث في بداية الأمر وهو صامت، ثم راح يصيح ويصرخ وينادي، ويسلط ضوء المشعل على كل جدار وكل ركن، وعبثاً حاول... فقد ذهبت كل أعماله سدى....

وعندما أيقن كازيمودو أن الفتاة ليست هناك، وأنها اختطفت منه، صعد إلى سطح الكاتدرائية، ثم عاد إلى الغرفة التي أمضت فيها بضعة أسابيع وتحت حمايته...

وعندما اقترب من الغرفة، حدثته نفسه بأنه سيجدها هناك، فغلب عليه هذا الوهم فغمغم:

ـ أجل.... إنها هناك....ربما تكون نائمة؟

إلا أنه وجد الغرفة خالية، فرفع المرتبة وبحث تحتها، ثم ألقى بالمشعل على الأرض وداسه بقدميه...

يئس إلى حد النهاية، فهجم على الجدار وضربه برأسه فسقط على الأرض فاقد الوعي...

وعندما استفاق القى بنفسه على المرتبة وتمرغ فوقها، وقبّل المكان الذي كانت ترقد فيه، وجمد في مكانه كمن فقد الحياة.

أخيراً نهض وهو يلهث ويتصبب منه العرق، ثم عاد إلى ضرب رأسه في الجدار بحركة منتظمة كحركة بندول الساعة، وكأنه يريد تهشيم رأسه...

سقط أخيراً على الأرض وظل جاثماً على ركبتيه.... فلم يأت بحركة ولم ينطق بكلمة... ولكنه كان يرسل من فمه بين الفينة والفينة زفرات تهز جسمه هزاً عنيفاً، ولكنها زفرات بلا دموع، فهي أشبه ببرق بدون رعد.

بعد مرور اكثر من ساعة على حالته هذه... فكر فيمن عساه يكون الشخص الذي اختطف البوهيمية.

فظن بالأسقف ، وأيقن أنه الشخص الوحيد الذي كان بإمكانه اقتحام غرفة

الفتاة، وتذكر كيف اقتحم تلك الغرفة من قبل، وتذكر أشياء كثيرة أخرى... فاستقر رأيه على أن الأسقف هو الشخص الوحيد الذي اختطف الفتاة منه... لكن سيطرة الأسقف عليه فرضت عليه احترامه. كما عليه البقاء مخلصاً له، ويعترف دائماً بجميله... فلم يحقد أو يغضب عليه رغم ذلك. بل شعر بحزن مرير ضاعف من تعاسته وأسفه على الفتاة!...

* * *

ومع انبثاق الفجر، التفت الأحدب خارجاً فرأى الأسقف يسير على سقف الكاتدرائية وبشكل سريع للغاية...

رغب في استفساره فقط عما صنع بالفتاة البوهيمية...لا لشيء بل في سبيل الطمأنينة....

فنهض من مكانه وتبع الأسقف، فرآه يطل من فوق السطح وينظر إلى شيء ما يحصل في الميدان...

بدا للأحدب أن اهتمام الأسقف بمراقبة ذلك الشيء كان بالغاً أشده، ذلك لأنه لم يسمع حتى وقع أقدام الأحدب، ولم يشعر بوجوده بقربه.

وصل الأحدب ووقف وراء الأسقف وقفة الكلب وراء سيده، وانتظره كي يلتفت إليه من تلقاء نفسه...

أما الأسقف بقي مهتماً بما يحدث في الميدان.... فخطر للأحدب أن يطلع على ما يهتم به الأسقف في الميدان، فاطل رأسه من فوق سيده. فشاهد المشنقة وقد نصبت وسط الميدان...

ثم شاهد بعد قليل رجلاً يتسلق المشنقة، وعلى كتفه هيكل في غلالة بيضاء.

ووقف الرجل فوق المشنقة، ومن ثم وضع الحبل في عنق الهيكل.

ثم ترك الرجل الهيكل، فهوى في الفضاء وبقي معلقاً بحبل المشنقة.

بينما كان كازيمودو يرى ذلك احتبست أنفاسه... وتوقف قلبه عن الحركة.

أمام هذا المشهد المؤلم، كان الأسقف قد اشرأب بعنقه، وبقي ينظر أمامه بحدة، إلى أن رأى جسد البوهيمية يهوي في الفضاء، فانطلقت من فمه ضحكة ليس من ضحكات البشر، ولا هي من نوع أي صوت من أصوات المخلوقات الحية.

في هذه اللحظة لم يسمع كازيمودو هذه الضحكة الغريبة، إلا أنه تراجع إلى الوراء فرأى وجه الأسقف، ثم ما لبث أن هجم عليه فجأة فحمله بين يديه وقذف به في الفضاء!

ثم نظر كازيمودو إلى حيث كان جسد البوهيمية معلقاً في حبل المشنقة.... ومن بعدها نظر إلى حيث سقط الأسقف على أرض الميدان... وأرسل من فمه آه... عميقة وصاح:

ـ اولئك كل من أحببت!...



الخاتمة

زواج كازيمودو

انتهت عملية شنق الساحرة ونقلها الجنود إلى مقبرة فونفاكو حيث يتم دفن المجرمين....

أما كازيمودو الذي كان يملأ الكاتدراتية نشاطاً وحيوية من حركته الدائمة إلى قرع الأجراس إلى فتح الأبواب واقفالها... فبعد تلك الحادثة المؤلمة للبوهيمية التعسه لم ير أحد كازيمودو في الكاتدرائية، بل لم يراه أحد في أي مكان آخر إن في باريس أم في غيرها...

* * *

ففي نهاية العام التالي، حدث أن سمع الملك لويس الحادي عشر لابن الكونت أوليفيه لادام بنقل جثمان والده من مقبرة مونفاكو، حيث دفن بعد شنقه...

أثناء البحث عن جثمان الكونت المذكور عثر العمال في أحد قبور المجرمين على هيكلين عجيبين متعانقين، أحدهما هكيل امرأة في ثوبها الأبيض، والآخر هيكل رجل كبير الجمجمة، معوج الساقين، في صدره وظهره نتوء بارزة....

إنما رأى المراقبون أن العمود الفقري في هيكل الرجل سليم، وذلك دليل على أنه لم يمت شنقاً كسائر الذين يدفنون في مونفاكو، واكبر الظن أنه ذهب إلى ذلك القبر ورقد فيه!

ولم يبرحه حتى مات.

ولما أراد العمال فصل هذين الهيكلين، انهار الهيكلان وتحولا إلى تراب....

أسئلة ومناقشات وأبحاث

١) اكتب حياة فيكتور هوغو موسعاً هذا النص البسيط بأبحاثك الخاصة كي تصل إلى ثلاث صفحات أو اكثر....

٢) اكتب وصفاً دقيقاً مع اضافة شيئاً من خيالك للقاعة الكبرى ومن فيها؟

٣) لماذا تذمر الناس؟ وغضبت الجماهير؟ وما حل برجال الشرطة؟ وهل يستطيع أحد أن يقف امام غضب الجماهير؟ حلل وناقش....

٤) بعد أن تكون قد قرأت القصة بكاملها، من تعتقد أنه تقدم من الجمهور واعلن بداية التمثيلية وانقذ رجال الشرطة.... وكيف تم ذلك، علل الاسباب؟

٥) بعد قراءة القصة، من هو الشاب الذي أمر بالبدء بالتمثيل؟

- ما مغزى الحديث الذي جرى بينه وبين الفتاتين جيزيل ولينا؟
- إلى أية طبقة اجتماعية تنتمي الفتاتان؟ ولماذا؟ إعطِ أدلة!...

٦) من هو السائل الذي ظهر فجأة؟

- أوضح أمره بايجاز.
- ماذا كان تأثيره؟ ولماذا زجه الكاتب هنا؟ حلل وناقش.

٧) صف الكاردينال دي بوربون... وقارنه مع وصف السيد كوبنول...

- ثم اذكر دور كل منهما في وسط هذا الجمهور ضمن القاعة. ومن رسم طريقة انتخاب امير المغفلين؟

- حلل وناقش دور كل منهما...

٨) حلل الأسباب التي حدت بالكاردينال الانسحاب من الحفلة؟

٩) صف كازيمودو أمير المغفلين... وناقش صفاته الجيدة إلى جانب دمامته...

- أخيراً عرفه الناس فمن كان كازيمودو؟

١٠) التمثيلية ومؤلفها عرّف بكل منهما بعدة أسطر...

- أشر بايجاز إلى تفاؤل جرنجوار مع ذكر بعض التعابير التي تدل على ذلك.

١١) تصور ازمرالدا بعدما قرأت القصة وضع لها وصفاً كاملاً... ثم صف رفيقتها الدائمة... واظهر دور كل منهما في عملية الرقص في الساحات العامة.

١٢) كيف دخل أمير المغفلين إلى ميدان لاجريف، صف المشاهد المتتالية محدداً دور كل من الأشخاص الذين برزوا في هذا القسم فقط؟

- وحدد العلاقة بين الأسقف وكازيمودو بمناقشة موضوعية...

١٣) أعط مثلا عن الإنسانية المعذَّبة...

«لا يجد فراشاً يرقد فيه وهو جائع ولا يستطيع إيجاد الطعام».

حدث ذلك عام ١٨٣١، قارن بين الجوع والفقر في تلك الأيام وفي أيامنا هذه؟

١٤) أعد كتابة قصة اختطاف الفتاة مبيناً دور كل من الاشخاص الذي اشتركوا واذكر:

- من هم الخاطفين؟ من هو المنجد الاول؟ وما كان معبره.

- من هو المنجد الثاني؟ ومن كان معه؟ وكيف هربت منه ازمرالدا؟

- ما هو أقوى سلاح عند كازيمودو؟ وما كان شعوره بعد الاختطاف؟

١٥) اذكر بايجاز كيف تقدم جرنجوار إلى دار العجائب تدريجياً إلى أن وصل إلى الملك؟

ـ ثم اذكر شعوره وأحاسيسه اثناء هذا التقدم...

ـ ناقش وحلل كل مشهد من مشاهد ممر الدخول.

١٦) جرنجوار بين المشنقة والنجاة... اعد ذكر الاحداث باختصار، مشيراً إلى المفاجآت.

ثم حلل وضع كل وضعية مرّ بها شاعرنا، وكيف نجا في النهاية؟

١٧) انقذت الراقصة حياة جرنجوار: كيف تم ذلك؟ وما كان هدفها من هذا التصرف هل عاشا معاً؟ كيف؟

ـ اذكر في هذا الفصل ماهي هواجس كل من ازمرالدا وجرنجوار حول الزواج؟ حلل وناقش!...

١٨) ضع وصفاً لكاتدرائية نوتردام وفق ما ورد في هذا الكتاب....

ـ ثم ابحث عن مراجع تزيدك غنى في وصفها واجمعها بشكل ملحقات للوصف السابق...

ـ اضف إلى البحث عدة صور إذا امكن....

١٩) حاول أن تعدد أسباب تعدد أو تكاثر الأطفال اللقطاء... حلل، وناقش هذه الاسباب.

٢٠) لماذا يوضع الطفل اللقيط على باب معبد أو أمام مؤسسة اجتماعية؟

ـ ناقش آراء الراهبات بالطفل اللقيط... إذا كان بشعاً يجب رميه في البحر؟...

ـ لماذا برأيك تبناه القس؟

٢١) من هو كلود فرولو؟ ومن أصبح؟ وما هي ميوله؟ وهل هو إنسان فعلاً؟

ـ أعطِ أدلة وأمثلة على كل إجابة تعطيها لهذه الاسئلة.

٢٢) لماذا تبنى القس كلود اللقيط رغم كل صفاته الدميمة؟ ألم يكن بامكانه أن يتبنى

طفلاً آخر؟ وقد وجدوا على باب الكاتدرائية خمسة أطفال هذا العام؟

ـ حلل وناقش هذه الأمور؟ ثم ابدي رأيك في كل منها.

٢٣) العلاقة بين كازيمودو والاجراس كيف وصفها الشاعر؟

ـ هل تحليله للعلاات النفسية واضحاً؟ هل بامكانك إضافة شيء إلى هذه الصلة بين الإنسان والاشياء مثل الغلق بالأمكنة، بالأرض، بالأوطان....الخ. اشرح وحلل....

٢٤) عدد القيم الأخلافية التي يتحلى بها الأحدب تجاه الأسقف.

ـ اذكر أسبابها وموجباتها! علل هذه الأسباب؟

ـ أشر لماذا أصبح الأسقف يائساً من أخيه؟ ولما جنح نحو الابحاث العلمية؟

٢٥) في الفصل الخامس والعشرين أثار الكاتب مسألة العدالة والقضاء.

ـ ما هو رأيك بالعدالة على الأرض؟ ناقش وحلل.

ـ ما هو رأيك بالقضاء في بلدك؟؟ حلل وناقش.

٢٦) ناقش وحلل هذا القول: «في تلك اللحظة أصبح (القاضي) أعمى وأصم في الوقت نفسه، وهما صفتان لازمتان للقاضي الكامل»...

٢٧) ماذا يريد الكاتب بإدخال تفاصيل هذه المحاكمة في القصة؟

ـ حلل وناقش كل إجابة من الاجابات، ومن ثم الحالات النفسية لكل من الحكام والمتهمين....

٢٨) قم بمقارنة المحاكمتين: محاكمة جرنجوار في دار العجائب... ومحاكمة كازيمودو في محكمة باريس.

ـ وحاول ان تستخلص ما يريده الكاتب من مقارنتهما؟

٢٩) أوجز قصة جيدول مع الغجر، هل تستحق الشفقة فعلاً؟ لماذا؟

- هل أشار الكاتب سابقاً إلى أمر يقيم شبهاً بين جيدول وازمرالدا؟ ما هو؟.
- أكتب نصاً من خمسة اسطر تعبر فيه عن عاطفة الامومة...

٣٠) ما رأيك بعقاب كازيمودو؟ أي نوع من الظلم يشير إليه الكاتب؟
- صف حالة كازيمودو النفسية، وتقبله للقصاص، ولا تنسى شعور وتصرفات الجمهور؟

٣١) الحسناء ازمرالدا بين كل جماهير ميدان لاجريف روت الأحدب في أشد صعوبة تعرض لها.
- أعد قراءة النص مشيراً إلى الحالات النفسية التي مرّ بها كل منهما.
- هل تبقى الإنسانية كما كانت في القرون الوسطى: انسان عنده شفقة ورحمة واحد بين الآلاف.

أم ترى تقدمت الإنسانية وكثر العدد؟... ناقش وحلل.

٣٢) لدمعة كازيمودو معنى أو بالأحرى معاني:
- اذكر مبيناً غاية وعاطفة كل منهما...

٣٣) هل وفق الكاتب في وصف شعور الفتيات تجاه شاب يرغبنه بقربهن؟
- ناقش وحلل... المواقف والأوضاع والأحاسيس عند كل الفرقاء.

٣٤) دخلت ازمرالدا على منزل الفتيات والضابط فيبوس ماذا حصل؟ من تغلب جمالياً؟
- أوضح شعور وأحاسيس كل من الحاضرين في ذلك المنزل.

٣٥) حلل وناقش مشهد كشف السر أمام الضابط فيبوس.
- واذكر شعور وأحاسيس كل من الحاضرين...

٣٦) ماذا يمكنك أن تستنتج عن شعور وإحساسات الأسقف تجاه ازمرالدا؟

وكيف بدا الشاعر خلال الحوار مع الأسقف؟

- حلل هذه المواقف وناقشها.

٣٧) في فصل وقوع الجريمة، ضع وصفاً للعاصفة الجهنمية التي انتابت جمجمة الأسقف عندما رأى ازمرالدا تختفي مع الضابط عند تلك المرأة...

٣٨) هل تعتقد أن الضابط صادقاً بحبه لازمرالدا؟ ناقش وحلل هذا الأمر؟

٣٩) صف وقوع الجريمة مبيناً:

- غاية الضابط أولاً.

- غاية الأسقف ثانياً.

- الحدث كيف وقع؟ ومن قبل ازمرالدا أخيراً؟

٤٠) خذ نصوص لمحاكمة ازمرالدا ومراحلها. ناقشها وحللها:

- بين ما هي الأهداف التي يريد إظهارها الكاتب من سير هذه المحاكمة؟

٤١) في الزنزانة قال شارمول: «لقد توصلت المحكمة إلى معرفة الحقيقة واستراح ضمير العدالة وهذا عزاؤنا أيها السادة»

- ناقش وحلل هذا القول مبيناً صحته وأساليب الوصول إلى الحقيقة...

٤٢) قم بإجراء بحث حول رأي الكاتب فيكتور هوغو حول العدالة على الأرض...

- واقرن هذا البحث بالأسباب التي جعلته يحقر المحاكم والقضاء إلى هذا الحد؟

- وهل المحاكم والقضاء هكذا في القرون الوسطى أم في عصر كتابة القصة (التاسع عشر)؟

٤٣) ما رأيك بالحكم الذي أصدرته المحكمة بحق ازمرالدا وعنزتها.

- حلل وناقش.

٤٤) أوضح بعدة تعابير كيف انتابت موجة الحب الأسقف؟ وما هو الحب بالنسبة إليه؟

ـ هل الحب ذل (الركوع عند قدميها) أم أن له سلطان يجب الركوع أمامه؟

ـ ناقش وحلل...

٤٥) ما هي الأسباب التي دفعت ازمرالدا إلى رفض الأسقف وطرده؟ أشر إلى كل الأسباب.

ـ ومن هو المعذب أكثر ازمرالدا أم الأسقف؟... علل إجابتك...

٤٦) ما الشعور الذي ينتاب كل فرد عندما يرى مشهد ازمرالدا أمام المشنقة والأسقف يحدثها؟... صف المشهد وعبر عن شعورك وعواطفك نحو هذين الشخصين.

٤٧) صف المشهد الرائع الذي أنقذ فيه الأحدب ازمرالدا، مبيناً شعور وأحاسيس الأحدب وذهول ازمرالدا... وسرور الجماهير؟

٤٨) ضع وصفاً خاصاً للطريقة التي أنقذ فيها الأحدب ازمرالدا من المشنقة:

ـ ما هي دوافعه؟ هل يبدو أنه مغرم بها أيضاً؟

ـ أين كان الأسقف آنذاك؟ ماذا كان يفعل؟

٤٩) مناجاة الأسقف ومعاناته:

ـ اذكر التعابير التي تدل على مناجاته؟

ـ والتعابير التي تدل على معاناته؟

ـ هل تعتقد أنه أشرف فعلاً على الجنون؟ كيف؟

٥٠) ازمرالدا في غرفة المجرمين في نوتردام مع الأحدب.

ـ حلل مواقف ازمرالدا تجاه الأحدب... هل حدث تطور فيها؟

ـ حلل مواقف الأحدب تجاه ازمرالدا... هل حدث تطور فيها؟

- ضع خلاصة لهذا الفصل من وحيك الخاص.

٥١) الجمال الرائع والدمامة البشعة التقيا في هذه الغرفة:

- قارن بين الاثنين... لماذا قصد الكاتب هذا اللقاء؟

- أوضح أحاسيس وشعور كل من الاثنين في هذا الفصل؟

- فما كان الحل الذي وضعه كازيمودو للقائهما؟

٥٢) لماذا اضطر الأحدب إلى انتظار الضابط ساعات! وهل قابله؟

- ما رأيك بالمقابلة؟ هل بقي الأحدب أميناً لمهمته؟

- ما رأيك بالضابط؟ هل يحب ازمرالدا؟ لماذا؟

- صف شعور ازمرالدا أثناء انتظارها.

٥٣) هل تعتقد أن حب ازمرالدا يعتبر «حب من جانب واحد»؟

- ناقش وحلل هذا الحب عند الفريقين!

- ما رأيك في نهاية المطاف بهذا الحب؟

٥٤) علاقة الأسقف بأخيه:

- اذكر مراحل تطورها كما مرت معنا سابقاً.

- لماذا بدا الأسقف غاضباً من أخيه؟

- هل تتوقع أن يصبح جيهان لصاً متشرداً؟

٥٥) لقاء الأسقف وازمرالدا في غرفة الجرمين في نوتردام:

- ماذا فعل الأسقف؟ ماذا كان رد فعل ازمرالدا؟

- الصفارة ودخول كازيمودو؟ مقابلة كازيمودو بالأسقف...

- حلل وناقش كل هذه المواقف.

٥٦) تكلم عن خطة جرنجوار. هل رأى الأسقف أنها مفيدة؟ لماذا؟
تصور ما ستكون عليه الخطة الثانية التي بقيت سراً بينهما؟

٥٧) صف الهجوم الذي قام به الغجر على الكاتدرائية لإنقاذ ازمرالدا؟
ـ حدد الذين لعبوا دور البطولة في الهجوم والرد عليه؟
ـ هل تعتقد أن كازيمودو كان محقاً بكل ما فعل؟ حلل وناقش.

٥٨) ماذا حصل لازمرالدا أثناء حرب الغجر وكازيمودو؟
ـ من اختطف ازمرالدا؟ وإلى أين؟ ماذا يريد منها؟
ـ ماذا يريد الخاطف؟ هل فهمت ازمرالدا ماذا يمر بها؟

٥٩) أخيراً اروي كيف تعرفت الأم إلى ابنتها والإبنة إلى أمها؟
ـ صف المشهد المؤثر؟ لماذا لم تهربان من الخطر؟
ـ هل تمكن الجنود من معرفة مكان وجود ازمرالدا؟
ـ أنكرت الأم علمها بوجود ازمرالدا، كيف عرف الضابط؟

٦٠) اختطفت الفتاة من مكان لجوئها. من عساه يكون الخاطف؟
ـ اشرح وناقش معاناة كازيمودو.
ـ كيف توصل إلى معرفة الخاطف مع التأكيد على ذلك؟

٦١) شنقت ازمرالدا:
ـ ماذا فعل الأسقف؟ صفه وهو يشاهد تنفيذ الحكم من على سطح الكاتدرائية.
ـ صف دور الأحدب، خلال مرحلة الشنق، وصف ماذا فعل؟
ـ ماذا تستنتج من كلام الأحدب: «أولئك كل من أحببت».

٦٢) من هو بنظرك بطل القصة الحقيقي؟ الأنثى؟ والذكر؟

- أين وجد جثمان كازيمودو بعد مرور سنة؟
- عمّا يعبر هذا السلوك عند الأحدب؟
- لمن يبقى الخلود؟
- هل رأى المؤلف تحقيق الحب الحقيقي بين شخصين في هذه القصة؟
- هل الحياة تشبه هذه القصة؟ ناقش وحلل...

الفهرس

مقدمة ٥
فيكتور هوغو ٧
الفصل الأول: عيد المغفلين ٩
الفصل الثاني: من هو بيار جرنجوار؟ ١٦
الفصل الثالث: أمير المغفلين ٢٥
الفصل الرابع: من هو كازيمودو؟ ٣٣
الفصل الخامس: من هي ازمرالدا؟ ٤١
الفصل السادس: الراقصة الساحرة ٤٤
الفصل السابع: اختطاف الفتاة ٥٥
الفصل الثامن: من مأزق إلى مأزق ٦٠
الفصل التاسع: ليلة الزواج ٧٩
الفصل العاشر: كاتدرائية نوتردام ٨٩
الفصل الحادي عشر: اللقيط ٩٢
الفصل الثاني عشر: من هو كلود فرولو؟ ٩٥
الفصل الثالث عشر: من هو قارع الأجراس؟ ٩٨
الفصل الرابع عشر: الكلب وسيده ١٠٤
الفصل الخامس عشر: العدالة ١٠٧

الفصل السادس عشر: القصاص ١١٤
الفصل السابع عشر: ما هو سر العنزة؟ ١٢٥
الفصل الثامن عشر: القس والشاعر ١٣٤
الفصل التاسع عشر: وقوع الجريمة ١٤٢
الفصل العشرون: المحاكمة ١٤٨
الفصل الحادي والعشرون: إصدار الحكم ١٦٢
الفصل الثاني والعشرون: الاعتراف ١٦٥
الفصل الثالث والعشرون: هل يتنفذ الحكم؟ ١٧٩
الفصل الرابع والعشرون: عاصفة في جمجمة ١٨٧
الفصل الخامس والعشرون: الملجأ ١٩٠
الفصل السادس والعشرون: إنه قلب آدمي في جسم غير آدمي ١٩٤
الفصل السابع والعشرون: الطين والبلور ١٩٨
الفصل الثامن والعشرون: لقاء الشقيقين ٢٠٣
الفصل التاسع والعشرون: المفاجأة ٢٠٥
الفصل الثلاثون: ما هي خطة جرنجوار للانقاذ؟ ٢٠٨
الفصل الحادي والثلاثون: الهجوم ٢١١
الفصل الثاني والثلاثون: الاختطاف ٢١٥
الفصل الثالث والثلاثون: العقاب ٢٢٢
الخاتمة: زواج كازيمودو ٢٢٦
أسئلة ومناقشات وأبحاث ٢٢٨